الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت

محاضرات

في التاريخ السياسي للأندلس

الفئة المستهدفة: طلبة ماستر

الاختصاص: مغرب إسلامي

السداسي الثاني

إعداد: د/عمر بوخاري

الجزء الاول

السنة الجامعية:

2022-2021

بسم الله الرحمن الرحيم

مصطلح الأندلس ومدلوله:

يعد الفاتحون العرب أول من أطلق لفظ" أندلس " على شبه جزيرة ايبيريا" إسبانيا والبرتغال " حاليا، لقد جرت لفظة" أندليش " على ألسنة الفاتحين فتحولت مع مرور الوقت إلى " أندلس " وهي مأخوذة على الأرجح من الفندال vendalals وهو اسم للقبائل الجرمانية التي زحفت على شبه الجزيرة، وبسطو نفوذهم عليها في مطلع القرن الخامس الميلادي وسميت باسمهم

وبالرغم من وقوع معظم الجزيرة تحت سيطرة الفاتحين، إلا أن لفظ الأندلس لم يكن ليشتمل كل إسبانيا لأن سيادة المسلمين لم تسر على جميع أجزاء البلاد، خاصة وأن المد الإسلامي أخذ في الانحسار شيئا فشيئا عن المناطق الشمالية نتيجة ضغط المقاومة الإسبانية من جهة، وتهاون المسلمين في التصدي، بسبب خلافاتهم واقتتالهم فيما بينهم من ناحية أخرى، حيث لم تتوقف آلة الاستيراد الإسبانية، إلى أن طرقت آخر أبواب المعاقل الإسلامية في غرناطة.

ولم يبق وراء المسلمين سوى مآثرهم وأسماء مدنهم وقراهم، ومنها اسم الأندلس الذي يطلق على السهل الجنوبي (المناطق الجنوبية) وهو اصطلاح إداري لا يمثل المعنى التاريخي.

الثغور الأندلسية:

عرفت الأندلس ثلاث ثغور رئيسية على الحدود النصرية:

1- الثغر الأعلى وعاصمته " سرقسطة " يقابل مملكة نافار Navare

2- الثغر الأوسط وعاصمته مدينة سالم" Medinaceli "ثم طليطلة يقابل مملكتي " قشتالة " " Casteli " و" ليون " " Leon "

3- الثغر الأدنى ويقع بين نهري، ديورة وتاجة " Taja ".

الدويلات المعاصرة للوجود الإسلامي في شبه الجزيرة:

ليون: تقع في الشمال الغربي وعاصمتها مدينة ليون وتضم جليقية Galicia وأستوريش "asturias"

قشتالة: عاصمتها مدينة برغش Burgos وتقع بين ليون ونفار.

نبارة " نفار ": وعاصمتها مدينة بلبلونة Pamplona في الشمال الشرقي حيث تقطن قبائل البشكنس Sconis Rasques.

العصور التي مرت بها الأندلس:

دام حكم الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية من 92 هـ/711 م إلى سقوط غرناطة 897 هـ/1492 م وعرفت الأندلس خلال هذه الفترة عصورا متباينة سياسيا وعسكريا واقتصاديا.

أولا: عصر الفتح الذي استغرق أربع سنوات 92-95 هـ/711-714.

ثانيا: عصر الولاة: 95-138 هـ/714-755 م هذا العصر الذي ينته بمجيء عبد الرحمان الداخل ابن معاوية 138هـ 755م، دام هذا العصر 42 سنة تداول على ولايته 20 واليا كانوا تابعين للخلافة في دمشق مباشرة أو عن طريق بوابة الغرب.

ثالثا: عصر الإمارة 138-316 هـ/755-929 م يبدأ هذا العصر بقدوم عبد الرحمان الداخل وينتهي بإعلان عبد الرحمان الناصر الخلافة الأموية في الأندلس 316 هـ/929 م، دام عهد الإمارة 78 سنة.

ويليها هشام بن عبد الرحمان 172-180 هـ/788-796 م.

الحكم بن هشام (الربضي 180-206 هـ/716-822 م)

عبد الرحمان الثاني أو الأوسط بن الحكم (206- 238 هـ/ 822 - 852 م)

محمد عبد الرحمان(238-273هـ/852-886م)

المنذر بن محمد(273-275هـ/886-888م)

عبد الله بن محمد(275-300هـ/888-912م)

عبد الرحمان الناصر(300-350هـ/912-961م) م)

عصر الخلافة:

عبد الرحمان الناصر(316-350هـ) وهو أول خليفة للأمويين بالأندلس

الحكم المنتصر بن عبد الرحمان المنتصر(350-366هـ/961-976م)

هشام الثاني المؤيد بن الحكم المستنصر(366-399هـ/ 976-1009م)

وفي عهد هذا الخليفة صارت السلطة في يد صاحب الدولة الحاجب المنصور بن أبي عامر، ثم إلى ولديه من بعده المظفر ثم عبد الرحمان الملقب "شنجول" وانتهت الدولة الأموية منذ سنة 422 هـ/1031 م.

عصر ملوك الطوائف: (422-399497هـ/ 1031-1086م)

ويبدأ بسقوط الدولة الأموية في الأندلس والتفكك إلى دويلات طائفية ضعيفة متنازعة، ابرزها امارة بني عباد في اشبيلية، بنو ذي النون بطليطلة، بنو زيري في غرناطة.... وتمثل هذه الحلقة من هذا العهد وصمة عار في تاريخ المسلمين، ومثالا للانقسام والتناحر، وموالاة العدو والاستعانة به على إخوانهم.

عصر الهيمنة المغربية

المرابطين: 479-541هـ 1086-1146

الموحدين:541-609هـ 1146-1212

كانت العاصمة مدينة مراكش وانتهى هذا العصر بعد هزيمة دولة الموحدين أمام الجيوش الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة 609 هـ/1212 م، وقد شهدت الفترة التي تلت سقوط دولة الموحدين فترة ملوك طوائف أخرى، (تعرض إلى هذه الفترة التاريخية السيد عبد الله عنان-في كتابه دولة الإسلام في الأندلس)، وكذلك جورج إفرينج في كتابه" سقوط غرناطة " ترجمه الى العربية إسماعيل العربي.

مملكة غرناطة أو عصر بني نصر أو بني الأحمر:

وهو آخر عصر اسلامي في الأندلس ويمتد من سنة 1231 إلى سنة 1492 م

الاندلس قبيل الفتح:

شهدت اسبانيا في العقود الأخيرة قبل الفتح، ظروف سياسية واجتماعية مضطربة، مست جميع مفاصل الدولة، ومن عوامل هذا الاضطراب والضعف انقسام المجتمع الإسباني إلى طبقات تسيطر بعضها على بعض.

1- طبقة الممالك والنبلاء:

يعرف نظام الحكم في العهد القوطي بتعيين الملك عن طريق الانتخاب، وعلى الرغم من إيجابية هذا النظام من انتقال الحكم للأصلح، إلا أنه لم يمنع هذه الطبقة من التنافس وإثارة

الدسائس والمؤامرات، للوصول إلى السلطة، الأمر الذي أذهب هيبة الدولة، وأضعف قوتها، إلا أن هناك بعض من ملوك القوط عرفوا بحسن سيرتهم، وخدمة دولتهم ومن هذا يقول الأستاذ حسين مؤنس" إلا أنه ينبغي أن يستثنى من هؤلاء الملوك نفرٌ أجمع المؤرخون على أنهم كانوا خير فئة قدموا لبلادهم خدمات جليلة، حربية وعمرانية بعيدة الأثر مثل" ششبرت " sisiberto (612-621هـ) الذي أتم فتح شبه الجزيرة والملك شنداسفنتو Chindasvinto (649-672 هـ) الذي قضى على عوامل التفرقة بين أجناس الشعب، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج بين القانون الروحاني القديم الذي وضعه" يوريك" مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنبها مصاعب وخلافات شتى".

2- طبقة رجال الدين:

تعد طبقة الإكلروس الطبقة الثانية من حيث الترتيب الطبقي للمجتمع فإلى جانب النفوذ الروحي الذي أكسبها درجة القداسة، إلى درجة أن بعض الناس كان يعتقد أن رجل الدين بمقدوره أن يدخله الجنة أو النار، كما كان يعتقد أنه الوسيط بين العبد وربه، وهو المانح لصك الغفران، كما كان لهم الحق في مباركة الملك الجديد وتتويجه مما يعني أنهم كانوا شركاء في انتخاب الملك.[1]

3- الطبقة الوسطى: كانت هذه الطبقة شبه منعدمة، نظرا لاستحواذ الطبقة الاولى على الاراضي الزراعية التي كانت تمثل المصد الاساسي للدورة الاقتصادية في المجتمع القوطي آنذاك.

4- الطبقة الدنيا: تمثل هذه الطبقة أغلب شرائح المجتمع القوطي، ويشتغل أغلبهم في مزارع النبلاء ورجال الدين ويعدونهم جزء من ممتلكاتهم الإقطاعية ينتقلون معها إذا ما بيعت لشخص آخر.

1- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 51.

5- طبقة اليهود:

تعد طبقة اليهود شريحة متميزة عن باقي الشرائح الاجتماعية، وذلك لانشغالهم بالأعمال المالية والمحاسبة، وانبثاثهم في الدواوين الحكومية، وكان تميزهم هذا وتكافلهم يمثل تكتلا يصعب اختراقه، خاصة وأنهم يمارسون الاحتكار ويتعاطون الربا، فحققوا قدرا وفيرا من الثراء مكنهم من التحكم في الحياة الاقتصادية[1]، فلاقوا بذلك كرها شديدا من الطبقة الحاكمة وخصوصا في عهد الملك غيطشة الذي تفطن إلى مؤامراتهم في محاولة قلب نظام الحكم ،واتهمهم بالتدبير عليه بالتعاون مع بني ملتهم كما جاء في النصوص الإسلامية، أو مع من تسميهم النصوص الإسبانية" أهل ما وراء البحر" Lastransmarios، حيث لا يفهم من النصوص الإسبانية إن كان المراد به أنهم راسلوا بربرا إفريقية أو يهودها أو العرب، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة لأننا لا نملك دليلا واحدا على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقية قبل الفتح الإسلامي، أما يهود إفريقية فكانوا وقتئذ في محنة لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاهنة في جبال الأوراس إذاك على أشدها، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط " ومع ذلك لا يستبعد أن يكون يهود المغرب قد أطلعوا نظراءهم من اليهود في إسبانيا، على يد الفاتحين المسلمين، وعن متابعتهم وبطولاتهم هذه الأنباء وغيرها، جعلهم يتطلعون إلى الخلاص من النظام القائم والتحرر من اضطهادهم.

عندما اعتلى غيطشة سدة الحكم في نوفمبر سنة 700 م كانت الاضطرابات قد بلغت ذروتها، بسبب المؤامرات المتوالية التي كان علية القوط ينسجون خيوطها، بسبب ما كان يجري من إصلاحات تهدد مصالحهم، منها: العفو على من كان والده قد أساء إليهم، والتحقق من وطأة

1- محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 26.

الاستبداد التي مارسه النبلاء على الرعية فسخط عليه هؤلاء وعمموا هذا التذمر في سائر أنحاء البلاد.

فانبرى غيطشة في التصدي لهم وعاقب بعض الرؤوس من النبلاء، ولما تقدم به أجله وأحس بدنو أجله أشرك ابنه في الحكم " أخيلا " Akila وعينه حاكما على الولايتين النربونية والطركونية تحت وصاية أخيه Rachisindo وخشندش، وكان هذا مما أثار غضبهم عليه، وتأليب الفئات المتضررة من هيمنته.

ففي هذه الظروف المدلهمة بخطوب الاضطرابات مات غيطشة ميتة طبيعية سنة 708 م وعندما حاول ابنه اعتلاء عرش والده لاقى معارضته من القساوسة والنبلاء، وعينوا شخصا آخر هو الدوق" لذريق "Rodrigo وانقسم الجيش والرأي العام على نفسه، وظهر هذا الانقسام حتى داخل البيت المالك فسار لذريق نحو طليطلة، وبعد مدة ليست بالقصيرة سار على رأس جيش جرار يصحبه كبراء القوط ونبلاؤهم والتقى بجيش خشندش في موقعة حاسمة قتل فيها هذا الأخير.

دوافع فتح الأندلس:

يجمع المؤرخون العرب على أن سبب دخول العرب الفاتحين إلى الأندلس، يعود إلى ما حدث ليوليان مع لذريق، وملخص هذه القصة هو ان يوليان حاكم سبتة قد أرسل ابنته إلى القصر الملكي بطليطلة أين يقيم لذريق، بغرض تنشئتها على عادات القصور الملكية مع لداتها من الأميرات وبنات الملوك والتأدب والتثقف، وكانت فتاة رائعة الجمال اسمها florenda فلورندا فهام بها لذريق وحاول أن ينال منها، لكنها امتنعت فلجأ إلى العنف واغتصبها ونال من عذريتها فشكت ذلك إلى والدها، فأسرع إلى طليطلة لاسترجاعها ، وعندما فرغ من الحديث معه وهم بالخروج، طلب منه لذريق كعادته أن يهديه طيورا للصيد، رد عليه يوليان" لأوردن عليك طيورا لم

تسمع قط بمثلها وهو ينوي الغدر به، وأقسم أن يفعل ما في وسعه لتحريض العرب على الدخول إلى الأندلس وقال وربي المسيح لأزيله وملكه ولأحفرن تحت قدميه.

إلا أن المصادر الأجنبية والإسبانية على وجه التحديد، تقلل من أهمية هذه الرواية وتستهجنها، وتستبعد أن تكون هذه الرواية سببا قاهرا في دخول المسلمين إلى إسبانيا، والواقع أن سبب إبعاد المؤرخين الإسبان لهذه الفرضية هو إبعاد صفة الخيانة عن زعماء إسبانيا الأوائل.

التخطيط لفتح إسبانيا:

لما عزم موسى بن نصير على الجواز إلى شبه العربية أيبيريا، استشار الوليد بن عبد الملك فأشار عليه بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين، فراجعه موسى أنه ليس ببحر زافر وإنما هو خليج منه يابس ما خلفه، فكتب اليه وإن كان فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فاستدعى ضابطا من ضباطه يدعى" طريف من مالك المعافري " كلفه بمهمة الإغارة على السواحل الجنوبية، وفي المكان المعروف Tarifa نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق المجاورة وأصابوا سبيا كثيرة ومال ورجع إلى العدوة المغربية.

فتبين لموسى من خلال هذه الحملة الاستطلاعية أن الخطوط الدفاعية للقوط هشة يمكن اقتحامها، فجهز جيشا كبيرا قوامه 7000 محارب، فوقع اختياره على أحسن قادة المسلمين يومئذ للاعتبارات التي قدرها موسى بن نصير تقديرا، جريا على سنة العرب القدامى، وسنة والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم وخلفائه من اختيار القادة، فهذا لقيط بن يعمر يحذر قومه من ملك الفرس الذي هم بالإغارة عليهم فحثهم على الثبات وأن يؤمروا عليهم أحسنهم وأعرفهم بشؤون الحرب ومما جاء في كتابه اليهم:

وَقلِدُوا أَمْرَكُم لِّلهِ دَرّكُم رَحْـــــــبَ   الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الحَرْبِ مُضْطلــعا

لاَ مُتْرَفًا إنْ رَخِيُّ العَيْشِ سَاعَدَهُ   وَلاَ إذَا عَضَّ مَكْرُوه لَهُ خَشَعَ

وقع اختياره على طارق وكان قائدا محنكا مقداما، بالإضافة إلى كونه ذا معرفة وثيقة بأوضاع الأندلس بفعل مجاورة البربر للأندلس، والمتاجرة مع القوط وكذا نجاحه في المهمات الاستطلاعية والتفاوضية مع يوليان.

قفى 05/رجب/92هـ 28/ أبريل 711م عبر طارق المضيق على متن أربع سفن تجارية قدمها يوليان حتى نزل بجنوده في جبل كالبي المنيع الذي صار يعرف باسمه وهو "جبل طارق" واتخذه مركزا لتجميع قواته، وقاعدة للإنطاق والارتكاز.

وبدأت عمليات طارق في محاولة تأمين المنطقة من جميع الجهات المجاورة لبحر الزقاق، وحتى يحقق طارق التأمين الشامل لمكان الحشد أرسل طارق عبد الملك بن عامر (وهو الجد الأعلى للمنصور بن أبي عامر) في قوة عسكرية تسمى مدينة قرطاجنة، ثم توجهت جنوبا وفتحت مدينة الجزيرة الخضراء.

وفي هذه الأثناء أُبلغ لذريق بنزول قوات المسلمين، فأعلن على الفور التعبئة العامة، وانطلق يحث السير نحو طليطلة لحشد باقي قواته، فتوافدت عليه الجموع من شتى أنحاء البلاد حتى اجتمعت عليه ما يقرب من مائة ألف مقاتل، كما طلب المساعدة من أبناء غيطشة نظرا لعمومية المحنة، ولكن هؤلاء ظلوا على ولائهم للخطة التي وضعوها مع يوليان من أجل الإطاحة به، ومع ذلك انظم إليه شيشبرت وأبة، ابناء غيطشة بغرض إرباك الصفوف والغدر به، وكانا مما بثه داخل جيش لذريق من دعاية، ما أورده ابن الشباط أنهما قالا:" إن هؤلاء الداخلين إلينا ليس شأنهم استيطان بلدنا، وإنما يريدون إصابة غنائم يرجعون بها إلى بلادهم، ولعل الذي غلبنا على ملك أبينا إذا قاد الحرب بنفسه أن يهلك ويرجع إلينا ملكنا".

بعد وصول الأخبار إلى طارق تهيب الموقف، وأيقن أنه لا قبل له بهذا الجيش الضخم الذي يفوق جيشه عدة وعددا، فكاتب موسى يطلب منه الإمداد، فلم يتردد موسى عند استلامه

الكتاب وأمده بخمسة آلاف مقاتل، بقيادة طريف بن مالك، وفيهم عدد عظيم من العرب، فأدركوا طارق قبل اللحظة الحاسمة، فقويت بهم نفسه ونفوس من معه.

معركة وادي لكه:

ودون انتظار سار طارق بحشود جيشه نحو بحيرة "لاخوندا" من كورة شذونة وهو المكان الذي اختاره طارق أن يكون ميدانا للاقتتال وعسكر على ضفته اليسرى وعسكر لذريق على الضفة اليمنى.

والتقى الجمعان يوم الأحد 28/رمضان/92 هـ، 19/تموز/711 م واستمر القتال 08 أيام وانتهى في 05 شوال، أظهر فيه المسلمون قدرة عظيمة على القتال واستبسلوا في المواجهة، وعندما مال عليهم القوط ميلة شرسة في أوائل المعركة، تحملها المسلمون وثبتوا في ميدانهم، وظلوا يعاودون الكرة عليهم حتى رجحوا كفة النصر لصالحهم، وقاتلوهم قتالا شديدا. وما كادت تشرق شمس اليوم الثامن حتى كان جيش لذريق قد أصيب إصابات بليغة في الميمنة والمسيرة وعندما تحقق لذريق من الهزيمة ولاذ بالفرار، ووجد فرسه بالقرب من إحدى المستنقعات وما دلهم على موته سوى أحد خفيه المفضض فقالوا إنه غرق.

نتائج معركة وادي لكة:

- كانت معركة وادي لكة معركة فاصلة في تاريخ الفتح الإسلامي، أظهر فيها الجيشان قوة عظيمة في الاقتتال والتضحية.
- دمرت فيها القوة الميدانية والمعنوية للجيش القوطي، مما أفقده القوة الدفاعية عن باقي المدن الكبرى، مما سهل على الجيش اقتحام المدن، والتوجه نحو الشمال.
- انكسرت شوكة القوط على يد الفاتحين، وتوقفت عجلة التاريخ وانتهى دوره على يد المسلمين.

ـ تعتبر هذه المعركة مؤشرا لجانب مهم من جوانب تاريخ المسلمين في الأندلس.

ـ ذهول المعارضين لنظام لذريق، بعد استمرار المسلمين في الانتشار والتموضع، وليس كما توهموا من أنهم يعيدونهم إلى الحكم ويعودون من حيث جاءوا.

ـ تكبد المسلمون ثلاثة آلاف قتيل، أما قتلى القوط فكانوا أضعاف ذلك.

ـ غنم الفاتحون جميع ما كان في معسكر القوط من العدة والمتاع والمأوى والأموال، فقد كان سهم كل واحد منهم من الذهب والفضة مائتا وخمسون دينار.

ـ كتب طارق إلى موسى يبشره بالنصر، ويخبره بأن الطريق بات مفتوحا أمامه للولوج الى قلب البلاد.

ـ تناهى إلى أسماء المسلمين في العدوة الجنوبية خبر انتصار المسلمين، فتطوعوا من كل جهة للحاق بطارق وفي هذا يقول المقري التلمساني" وتسامع الناس من أهل العدوة بالفتح على طارق وسعة المغانم فيها فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق ".

ـ أرسل موسى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق يبشره بالنصر قال" لم يكن هذا فتحا كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين فإن الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر يوم القيامة".

إتمام بقية الفتح:

بالرغم من شراسة المعركة، التي تكبد فيها الفاتحون وهي استشهاد أعداد رهيبة ناهزت 03 آلاف مقاتل، وكُلِمت أعداد كثيرة فيمن نجى من المعركة، إلا أن طارقا واصل عملية الفتح، فاتجه نحو الشمال، وفي الوقت أرسل فلوله وفق الخطة التي اعدها، قسم اتجه إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي على رأس 700 فارس وقسم آخر نحو البيرة وقسم نحو مالقة وسار هو في معظم الجيش

إلى كورة جيان يريد طليطلة التي ألفاها خالية، إلا من ثلة من اليهود الذين استبقاهم طارق بعد مغادرة المدينة، فقد فر حكامها وأهلوها نحو الشمال، وقد غنم المسلمون كنوزا وذخائر وجواهر ثمينة لا تحصى، وفيها مائدة سليمان المرصعة بالجواهر النفيسة، إلا أن الأستاذ حسين مؤنس ينفي هذه الصلة، يعني نسبة المائدة إلى سليمان عليه السلام حيث يقول:" إن المائدة التي يسميها العرب هي عبارة عن منضدة فاخرة مزينة بالجواهر استعملت في الكنيسة بغرض الصلاة ومن مدينة طليطلة كتب طارق إلى موسى يبلغه الخبر.

وفي شهر رمضان 93 هـ يونيو 712 عبر موسى المضيق على رأس ثمانية ألف مقاتل معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية، عرفت بطالعة موسى وكانت الخطة التي اعتمدها موسى أن يسلك الطريق الغربي عبر الطريق الذي سلكه طارق واستولى على المدن الهامة مثل قرمونة المحصنة ثم إشبيلية فماردة. ثم التقى بطارق عند نهر التاجو Tajo بالقرب من العاصمة طليطلة. وعقد الرجلان مجلسا عسكريا، قوّم فيه نتائج المرحلة التي قطعها الرجلان وناقشا المرحلة التالية من الفتح.

:

عصر الولاة في الأندلس: 96 هـ138 هـ، 714–756 م

يبدأ عصر الولاة تحديدا برحيل القائدين موسى بن نصير، وطارق بن زياد، إلى المشرق في 96 هـ/714 م لمقابلة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك إلى دخول الأمير عبد الرحمان الداخل بن معاوية الأندلس، وتأسيس الدولة الأموية 756/138 م، استغرق عصر الولاة 42 سنة، تولى الحكم فيها 20 واليا، اثنان منهم مرتين، وهما عبد الرحمان الغافقي وعبد الملك بن قطن. وقد مارس هؤلاء السلطة باسم الخلافة المركزية بدمشق، ووالي شمال إفريقيا إلا أن تعيينات ولاة اختلفت من مرحلة إلى أخرى، نظرا للاضطرابات الداخلية والثورات المتكررة وجاءت أنماط هذا التعيين على النحو التالي:

ـ التعيين من قبل الوالي نفسه كما هو الحال مع عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي عين من قبل والده.

ـ التعيين من قبل الخليفة نفسه كما هو الحال مع السمح بن مالك الخولاني الذي عين من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز.

ـ التعيين من قبل فئة واحدة من مجموع فئات أهل الأندلس مثل ما حدث مع بلج بن بشر، وثعلبة بن سلامة العاملي وثوابة بن سلامة الجذامي الذين عينوا من قبل الشاميين.

ـ التعيين من قبل أغلبية من مسلمي الأندلس، كما هو الحال مع أيوب بن حبيب اللخمي، عبد الرحمان الغافقي في ولايته الأولى وعذرة بن عبد الله الفهري ومحمد بن عبد الله الأشجعي، ويوسف بن عبد الرحمان الفهري.

غزوات المسلمين في ما وراء المرتات:

إن أكثر العلامات المميزة لهذا العصر، هي الفتوحات الإسلامية في بلاد الغال، وما قدمه بعضهم من تضحيات جسيمة، ومما يستوقف الناظر أن العرب رغم مشاغلهم الكثيرة، فقد

استطاعوا أن يواصلوا الفتوح في غالة لمدة 20 سنة بعد تمام الفتح هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى الاضطرابات والصراعات الداخلية بين العرب والبربر من جهة وبين العصابات العربية نفسها، بين العرب البلديين والعرب اليمنيين.

يبدأ هذا العصر بتولي عبد العزيز بن موسى بن نصير، إلا أنه لم يدم طويلا فقد تربص به قواده ريب المنون، ودبروا له مكيدة، ونسجوا خيوطها بإحكام، وعلى العموم فإن أسباب اغتياله مختلف فيها. فالبعض يرى زواجه بأرملة لذريق أيله Egilana، وتشبهه بملوك القوط بوضعه التاج على رأسه عندما يكون بصحبة زوجته.

وعندما عاينه المسلمون على تلك الحال استشنعوا وقالوا إنه تنصر فثاروا عليه وقتلوه، يقول ابن عذارى معلقا على هذه الحادثة " وأكثر الناس على أن هذه الحكاية لا تصح " ويذرف قائلا " إنما قتلوه بأمر سليمان لهم بذلك إذ نكب والده ".

وهناك فريق آخر يرجع سبب الاغتيال، إلى الامتعاض وعدم الرضا بما فعله سليمان بن عبد الملك بوالده موسى، وذكره بسوء في مجلس مع أعوانه فحملوا كلامه على محمل الجد، فتآمروا عليه لاعتقادهم أنه ينوي الخروج على الخليفة والاستقلال بإمارة الأندلس، فاغتالوه وهو في الصلاة وحملوا رأسه إلى سليمان بدمشق فوضعوه بين يديه، وأحضر موسى بن نصير، قفيل له أتعرف هذا قال " هنيئا له الشهادة " قتلتم والله صوّاما قوّاما "، وفي رواية ابن عبد الحكم " قال نعم أعلمه صواما قوما، فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيرا منه ".

فلما أفلت شمس عبد العزيز عن الأندلس، ولي بعده أيوب بن حبيب اللخمي 97 هـ وهو ابن أخت موسى بن نصير، لم تتجاوز ولايته ستة أشهر وإليه يُنسب بناء قلعة أيوب جنوب سرقسطة وهي الآن مدينة كبيرة لا تزال تحمل اسمه Calatayoud.

ثم خلفه الحرّ بن عبد الرحمان الثقفي المعيّن من قبل محمد بن يزيد والي إفريقية ومن أهم إنجازاته الحربية غزو مدينة " أربونة " عاصمة " سبتمانية " ومن أبرز أعمال هذا الوالي نقل الإمارة من إشبيلية إلى قرطبة.

وعندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة خلفا لسليمان بن عبد الملك، ولي إسماعيل بن عبد الله واليا على إفريقية، وولى السمح بن مالك الخولاني على الأندلس.

ومن أهم أعمال السمح بن مالك الإصلاحية والعمرانية وخصوصا في العاصمة قرطبة، ترميم القنطرة الواقعة على الوادي الكبير، وهي قنطرة قديمة أنشأها الرومان، فتصدعت جوانبها مع مرور الزمن بسبب السيول، وكان السمح قد استشار عمر بن عبد العزيز فأمره بذلك فأمر ببناء القنطرة بصخر سور المدينة، والسور باللبنات. " فصنعت على أتم وأعظم مما بني عليه جسرا من حجارة سور المدينة "

وعلى صعيد الفتوحات وراء جبال البركات، فقد قاد أول حملة في بلاد غالة، وخاصة في المناطق الجنوبية حيث إمارتي (سبتمانيا وإكيتانيا، وهي إمارات منتقلة ظهرت بعد زوال الحكم الروماني).

لقد استطاع السمح السيطرة على عاصمة سبتمانيا " أربونة " ثم واصل زحفه شمالا واستولى على مدينة تولوز Toulous، وعندما حاول التوغل في دوقية إكيتانيا تصدى له حاكمها الدوق يودو Yudo بالقرب من مدينة تولوز Toulous، وانتهت المواجهة بهزيمة السمح بن مالك واستشهاده في ميدان المعركة سنة 102 هـ/721 م، وانسحب باقي الجيش بقيادة عبد الرحمان الغافقي إلى أربونة التي أصبحت قاعدة ارتكاز وانطلاق لغزو ما وراء جبال البرتات.

خلف السمح بن مالك الخولاني على الأندلس، عنبسة بن سحيم الكلبي 102هـ حيث قام ببعض الإصلاحات الداخلية (إصلاح شؤون الرعية، تطييب الخواطر، وإعادة الثقة للسكان والتخفيف من حدة الاضطرابات.

إلا أن عنبسة غلّب أمر الفتوح على الإصلاحات الداخلية، فجهز جيشا قويا، واتجه صوب بلاد الفرنجة الذين هزموا المسلمين في أكيطانيا ،كل ذلك لرد الاعتبار والثأر للمسلمين الذين مات أغلبهم في المواجهات السابقة.

عاد إلى إقليم سبتمانية ففتح قرقشونة Carccason عنوة ثم مدينة نيم Nime ومنها إلى مقاطعة Provence.

ثم اتجه نحو الشمال الشرقي واستولى على " فالانس " Valence ثم Lion ثم " ماسون "Macon" وديجو Dijon ولانجر وأوتون إلى التي وطأت أقدام فرسانه أعالي الرون حتى وصل إلى مدينة سنس التي لا تبعد عن مدينة باريس سوى 36 كلم.

وفي هذه المدينة تجمعت فلول المقاتلين من جميع الضواحي واستبسلوا في الدفاع ، وكان جيش عنبسة قد أنهكته المواجهات فلم يعد قادرا على مواصلة المعركة فقرر عنبسة العودة إلى القواعد الخلفية، إلا أن أهالي البلاد قطعوا عليه خط الرجعة، وانتهت المواجهة باستشهاد سنة 107هـ-726.

وباستشهاد عنبسة وهزيمة المسلمين في أراضي الفرنجة، نشبت الاضطرابات القبلية والحرب الأهلية ودامت 4 سنوات توقفت فيها حركة الفتوحات، وتجمد النشاط العسكري خارج الأندلس واختل الأمن وتناوب الولاة على الحكم في مدة 7 سنوات بمعدل سنة واحدة لكل والي، من تعيين عذرة عبد الله الفهري إلى عبد الرحمان الغافقي وولايته الثانية، وهم 7 ولاة وهذا يدل على كثرة الاضطرابات والمنازعات بين مختلف القبائل.

ولاية عبد الرحمان الغافقي:

تولى على الأندلس سنة 112 هـ/730 م، ظل عبد الرحمان متعطشا لقيادة الجيوش فيما وراء البرتات، وكان كل همه الانتقام لما لحق بالمسلمين في أراضي الفرنجة.

فخرج بجيش سنة 114 هـ فهاجم إكيتانيا وعبر نهر الجارون واستولى على مدينة بوردوا Bordeau التي تقع عند مصبه، وعندما عجز دوق إكيتانيا استنجد بالدولة الميرو فنجية، التي كانت فيها السلطة الحقيقية في يد الحاجب شارل مارتل "شارل المطرقة"، فلبى الدعوة وخرج على رأس جيش قوى (ألماني) والتقى الجمعان في بلدتي توربوا تيه في رمضان 114 هـ732 م، دامت 03 أيام كانت الغلبة فيها للمسلمين في بداية المعركة، فغنم المسلمون أموالا كثيرة، استودعوها مؤخرة الجيش.

على انه ينبغي ان يُعلم أن معركة بلاط الشهداء كانت معركة فاصلة، وما قام به المسلمون بعد ذلك ليست إلا محاولات باهتة مترهلة، خالية من تلك الروح الاندفاعية المتألقة إلى بلوغ المراحل السامية للاستشهاد أو النصر.، وعلى كل حال فإن موجة الفتح نحو أراضي غالة قد توقفت اللهم إلا ما كان يقوم به بعض الولاة.

كمحاولة عبد الملك بن قطن الذي غزى أراضي البشكنس ثم عبر جبال البرتات وعمل على تحصين القلاع التي كانت في أيدي المسلمين، وتقدم إلى منطقة La prevence، وفي هذه الأوقات الحرجة عزل عبد الملك في رمضان سنة 116 هـ، 734 م، وتولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولي من قبل عبد الله بن الحبحاب وكانت له هو الآخر صولات في بلاد الفرنجة فقد أستولى على عدة مناطق منها دوقية Dauphiné دفينة وخرب بلدة سان بول المعروفة بالقصور الثلاث

Les trois chateaux، واستولى على مدينة Valence كما قام بمسح منطقة جليقية حتى لم تبق غير الحفرة التي لجأ إليها نفر من الإسبان وعلى رأسهم بلاي الذي سميت الصخرة باسمه (صخرة بلاي) وتركهم عقبة هو وأصحابه فقالوا:" ثلاثون علجا ما عسى أن يكون أمرهم وأظفروهم، فكان منهم العطب.

وبينما عقبة منهمك في مصارعة الأعداء، اشتعلت نيران الحرب والفتن في الأندلس، فتنة البربر في الشمال، واقتتال العصبيتين اليمنيية والمضربة في الأندلس.

عصر الإمارة الأموية

الأمير عبد الرحمن الداخل (138–172 هـ) مؤسس الدولة الأموية

أ– قيام الدولة الأموية وإحيائها في الأندلس سنة 138

أدت هزيمة الأمويين على أيدي العباسيين في معركة الزاب الأعلى (قرب الموصل شمال العراق) إلى إنهيار الدولة الأموية وسقوطها وخاصة بعد مقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد سنة 132 هـ.

ولم يكتف العباسيون بذلك بل أخذوا يتعقبون أفراد الأسرة الأموية بالتنكيل والقتل ، واشتهر منهم في ذلك عبد الله بن علي العباسي والي لشام الذي دبر لهم مذبحة رهيبة عندما دعاهم إلى وليمة عند أبي فطرس جنوب الشام بعد أن كان قد أعطاهم الأمان ، فغدر بهم هناك ، وأمر بقتلهم جميعاً، غير أن قلة من الأسرة الأموية ، لم يحضروا عند أبي فطرس ونجوا من المذبحة وعلى رأسهم الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي كان غائباً آنذاك في رحلة صيد ، فلما علم بما حدث لأفراد أسرته ، تمكن من التخفي بعيداً عن عيون العباسيين ،وهرب إلي فلسطين حيث لحق به هناك مولاه بدر.

ولم يلبث عبد الرحمن بن معاوية أن هرب إلي مصر ومنها إلى برقة عندما أدرك أن العباسيين ما زالوا يطاردون أبناء البيت الأموي، وظل في برقة مستتراً مدة ، ثم اتجه إلى افريقية وعاصمتها القيروان، كانت آنذاك تحت حكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي خشي نفوذه من جنود الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية ، فعمل على اعتقاله ، للتخلص منه ، ويؤكد ذلك قول المؤرخ ابن عذاري أن الفهري صار يقتل الواصلين إليه من بني أمية ، و يأخذ أموالهم "، ولذا

اضطر الأمير عبد الرحمن بن معاوية إلى الهرب مرة أخري بصحبة مولاه بدر صوب المغرب الأقصي حيث التجأ إلي أخواله من قبيلة نفزه البربرية .....).

بعد استقرار الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي بالمغرب الأقصى بدأ يتطلع نحو بلاد الأندلس خاصة وان الاحوال الداخلية كانت سيئة للغاية بسبب الصراع بين العصبيات العربية،

وانتشار القحط والمجاعة مما أدى إلى تدهور الاوضاع، وعلى هذا قرر الأمير عبد الرحمان معاوية أن يستغل تلك الأوضاع المواتية في الأندلس لتحقيق أهدافه وطموحاته السياسية بالسيطرة على الأندلس وإحياء دولة آبائه وأجداده الأمويين (الدولة الأموية) من جديد في أقصي الغرب الإسلامي.

وعلى أية حال فقد أرسل الأمير عبد الرحمن بن معاوية مولاه بدراً إلي زعماء وموالي بني أمية – وعلى رأسهم عبيد الله بن عثمان — وعرض عليهم مساعدته على العبور إلى الأندلس ، والسيطرة عليها، فرحبوا بذلك إخلاصاً منهم لسادهم الأمويين ، ثم أخذ موالي بني أمية بدراً والتقوا بالصميل بن حاتم زعيم المقرية (القيسية) في الأندلس ، وطلبوا منه مساعدة سيدهم الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية .

وقد رحب بهم الصميل في البداية وأحسن إليهم ، وأبدي استعداده النصرته ، وأن يزوجه من ابنته ، ثم لم يلبث أن تراجع عن موقفه ، ورفض تقديم أي مساعدة لهم خوفاً على نفوذه في الأندلس ، في حالة وصول الأمير عبد الرحمن إلى الحكم.

وعلى هذا اتجه بدر وموالي بني أمية إلى الحزب الآخر وهم اليمنية أعداء الصميل ويوسف الفهري والي الأندلس)، وهنا أبدي اليمنية ترحيبهم بقدوم عبد الرحمن ، وأعلنوا استعدادهم لمعاونته لتحقيق أهدافه كيداً في المغاربة وللثأر منهم ، وعقب ذلك عاد بدر إلي سيده الأمير عبد الرحمن في المغرب الأقصى وأخبره بما تم الاتفاق عليه في الأندلس ، وانضمام الموالي الأمويين واليمنية إليه .

وفي تلك الأثناء كان يوسف الفهري والي الأندلس قد أرسل جيوشه إلى شمال أسبانيا لمحاربة النصارى الإسبان في منطقتي جليقية والبشكنس ، و منيت جيوشه بالهزيمة ، في الوقت الذي وصلت إليه الأخبار في قرطبة العاصمة بعبور الأمير عبد الرحمن بن معاوية إلى الشاطئ الجنوب للأندلس و نزوله في ساحل ميناء المنكب (Almunecar) حيث استقبله هناك موالي بني أمية في غرة ربيع الأول سنة 138 هـ ، ثم زحف بعد ذلك شمالاً

و نزل بحصن طرّش بكورة البيرة ، وانضم إليه هناك جماعة من الأمويين وعرب الشام وأنصاره اليمنية والبربر ، وقام بتنظيم صفوفه ثم واصل الزحف شمالاً نحو العاصمة قرطبة ، وفي طريقه مرّ (بأقاليم ريه و شذونه ثم إشبيلية ، وكان أهل تلك المناطق يتلقونه بالترحيب والتأييد وإعلان الطاعة له، وعندما اقترب عبد الرحمن من قرطبة أصبح النهر (نهر قرطبة المعروف بالوادي الكبير) حاجزاً بين جيشه وجيش يوسف الفهري ، وبدأ عبد الرحمن في استخدام أسلوب المراوغة بأن أظهر ليوسف الفهري ميله إلى الصلح وحقن الدماء خاصة وأن اليوم هو الوقوف بعرفه (9 ذي الحجة سنة 138 هـ) والمسلمين على وشك الاحتفال بعيد الأضحى ، وانخدع يوسف الفهري بذلك وبعث إلي جيش عبد الرحمن بالطعام، كما سمح لهم بعبور النهر ، حيث أعلن عبد الرحمن عن موقفه الرافض للصلح إلا بعد الاعتراف به أميراً على الأندلس ، وعلى هذا دارت المعركة الفاصلة بين الطرفين عند موضع يسمي المصارة خارج قرطبة ، وانتهت بانتصار ساحق لعبد الرحمن بن معاوية يوم عيد الأضحى 10 ذي الحجة سنة 138 هـ ودخوله العاصمة قرطبة ظافراً فعرف بالداخل ، ودخل قصر الإمارة بما ، وتمت مبايعة لإمارة) ، وبذلك قامت الدولة الأموية في الأندلس.

أهم الثورات في عهده:

1- ثورة يوسف الفهري

عقب هزيمة يوسف الفهري (والي الأندلس السابق) والصميل على يد جيش الأمير عبد الرحمن الداخل في موقعة المصارة قرب قرطبة سنة 139 هـ ، هربا إلي غرناطة التي احتمي بهما الفهري ، وحاصره الأمير عبد الرحمن هو وجيشه حصاراً شديداً سنة 139 هـ ، واضطر إلى الاستسلام مقابل الأمان له وللصميل ، فوافق عبد الرحمن على ذلك ، وأسكنهما العاصمة قرطبة ، وأحسن إليهما وكان يستشيرهما في الأمور ، ومنع جنده من اليمنية أن يتعرضوا لأسرة الفهري أو أمواله وممتلكاته.

وبذلك استقرت الأمور للأمير عبد الرحمن ، غير أن هذا لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما أعلن يوسف الفهري الثورة ونقض العهد وهرب من قرطبة في سنة 141 هـ واتجه إلى مدينته ماردة بغرب الأندلس وأنضم إليه هناك أنصاره خاصة من البربر وغيرهم ، وبعد أن رأي كثرة جيشه بدأ في الزحف نحو قرطبة ، وفي الطريق التقت به قوات الأمير عبد الرحمن وأنزلت به الهزيمة ، وتفرق أتباعه عنه ، بينما هرب الفهري متخفياً نحو طليطلة ، وانتهي الأمر بمقتله على يعد بعض أعوانه سنة 142 هـ تقرباً للأمير عبد الرحمن . أما الصميل – حليف يوسف الفهري – فقد سجنه الأمير عبد الرحمن متهماً إياه بالتحريض على الثورة ، ثم أمر بقتله عقب ذلك بأن أدخل عليه من خنقه في السجن ، وانتهت أول المشكلات التي واجهته في بداية حكمه للأندلس.

2–ثورة هشام بن عروة الفهري

عقب مقتل يوسف الفهري أعلن أحد أعوانه من زعماء القيسية ويدعي هشام بن عروة الفهري الثورة في طليطلة أواخر سنة 144 هـ وأوائل سنة 145 هـ ضد الأمير عبد الرحمن الداخل ، واحتمي بمدينته طليطلة التي تشتهر بالحصانة والمناعة ، واستقل بذلك عن الحكومة المركزية بقرطبة فزحف إليه الأمير عبد الرحمن على رأس جيشه، وحاصره حصاراً شديداً وأجبره على الدخول في الطاعة والخضوع، ثم عاد الأمير بجيشه إلى قرطبة، ولكنه لم يلبث أن علم بعودة هشام الفهري إلى التمرد والعصيان مرة أخري ، فأرسل إليه جيشه بقيادة مولاه بدر ، وتم حصار طليطلة ثانية مما

أرهق أهلها فاضطروا إلى الإنفاق سرا مع قادة جيش الأمير عبد الرحمن تم بمقتضاه اعتقال زعماء الثورة ، وتسليمهم

الجيش الأمير مقابل فك الحصار عن مدينة طليطلة ، وأرسل زعماء الثورة إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن الداخل بقتلهم جميعاً .

3– ثورة العلاء بن مغيث الجذامي سنة 146 هـ

من المشكلات الخطيرة التي تعرض لها الأمير عبد الرحمن ثورة العلاء بن مغيث في مدينة باجة بغرب الأندلس سنة 146 هـ بتحريض من الخليفة العباس أبي جعفر المنصور الذي كان يتطلع إلى إعادة الأندلس إلي حوذة الخلافة ، وكان العلاء أحد الزعماء العرب من اليمنية في باحة ، الذين التفوا من حوله ، وهؤلاء اليمنية سخطوا على الأمير عبد الرحمن

لمنعهم من القيام بأعمال السلب والنهب في قرطبة عقب هزيمة يوسف الفهري ، ودعا العلاء إلى طاعة الحيفة المنصور العباسي سراً في سنة 141هـ (لأنه وعده بولاية الأندلس) ، ورفع الأعلام السوداء (شعار العباسيين) ، وكثر جنده من اليمنية ، وشكل خطراً كبيراً على الدولة الأموية ، وبدأ في الزحف نحو العاصمة قرطبة سنة 147 هـ ، حيث اتجه أولاً إلي اشبيلية وأنضمت إليه جماعات كبيرة من اليمنية ، وواصل زحفه حتى وصل إلى مدينة قرمونة التي تحصن بداخلها الأمير عبد الرحمن الداخل وجيشه ، وحاصرهم العلاء بما حصاراً شديداً دون أن ينجح في اقتحام المدينة مما أدي إلى تسرب اليأس إلي نفوس أتباعه ، وحدوث اضطراب بينهم ، ووصلت الأخبار بذلك للأمير عبد الرحمن ، فانتهز تلك الفرصة ، وحشد قواته ، وأثار حماسهم بأن أوقد ناراً ثم " أمر بأعمدة سيوف أصحابه ، فأحرقت ، وقال لهم : أخرجوا معي هذه الجموع خروج من

الأ يُحدث نفسه بالرجوع " ، ...، وامتثل الجند لأوامر قائدهم ، ثم انقضوا على جيش العلاء، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بهزيمة العلاء ومقتله ، وغالبية أتباعه ، وتشتت شمل من

ظل حيا منهم ، وتذكر المصادر التاريخية أن الأمير عبد الرحمن أرسل رأس العلاء إلى الخليفة العباسي المنصور وكان يحج بمكة آنذاك مع بعض الحجاج الأندلسيين ، وعندما شاهدها المنصور قال : " إنا لله ! عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراً " (وهو يقصد الأمير عبد الرحمن) ، وأطلق عليه عقب ذلك لقب "صقر قريش".

– ثورة سعيد اليحصبي بكورة لبلة سنة 149 هـ

في سنة 149 هـ أعلن سعيد اليحصبي المعروف بالمطري الثورة في كورة لبله بغرب الأندلس ، وانضمت إليه اليمنية حيث أنه من زعمائهم، وزحف بعد ذلك إلي اشبيلية التي استولي عليها بقوته العسكرية ، ثم تحصن بقلعة قرب اشبيلية ، وحاصره الأمير عبد الرحمن ، وأجبره على لخروج لمحاربته في قواته من اليمنية والبربر (أتباع المطري) وأنزل به الأمير عبد الرحمن الداخل الهزيمة ، وقُتل المطري و معظم أتباعه.

5– ثورة البربر بقيادة شقيا المكناسي سنة 152 هـ:

أعلن البربر الثورة ضد الأمير عبد الرحمن الداخل في سنة 125 هـ ، وتزعمهم رجل منهم هو شقيا بن عبد الواحد المكناسي الذي لقب نفسه بالفاطمي لادعائه أنه من نسل علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء والتف البربر من حوله في منطقة جبال وسطوش الأندلس قرب شبتويه ، التي عاث فيها فساداً ، فزحف إليه الأمير عبد الرحمن الداخل بجيشه ، فهرب المكناسي إلى الجبال الوعرة ، فانصرف عنه الأمير، مما أدى إلي ازدياد نفوذه وقوته بتلك المنطقة الجبلية ؛ وظل الأمير يرسل إليه بالحملات دون جدوي لاختبائه بالجبال ، ثم نجح الأمير عبد الرحمن من اجتذاب بعض البربر وزعمائهم في تلك المنطقة إلى جانبه ، مما أضعف من قوة المكناسي وتفرقت كلمة البربر هناك ، إلى أن تمكن قادة جيش الأمير من استمالة بعض أتباعه فغدروا به وقتلوه سنة 160 هـ.

6– تآمر ثوار أندلسيين وتحالفهم مع قوي خارجية ضد الأمير عبد الرحمن

من أخطر المؤامرات التي تعرض لها الأمير عبد الرحمن تلك المؤامرة التي شاركت فيها قوة داخلة متمثلة في بعض الولاة في الأندلس الثائرين من جند الأمير عبد الرحمن خاصة من اليمنية ، مثل سليمان والأعرابي والي سرقسطة وحليفه الحسين بن يحي الأنصاري من زعماء المدينة ، والرماحي وإلى الجزء الغربي ، وساندتهم في ذلك قوي خارجية مثل الخليفة العباس المهدي ، وشارلمان إمبراطور الفرنجة ، والفهري المعروف بالصقلبي وهو من الزعماء العرب بالمغرب الذين طمعوا في ولاية الأندلس.

وقد أتفق المتآمرون على أن يعبر الصقلبي بأسطوله وجيشه من البربر إلى شرق الأندلس ، ويعلن الولاء للعباسيين (الخليفة المهدي العباسي)، وفي نفس الوقت يعبر شارلمان بجيشه جبال البرتات ، ويتجه إلى مدينة سرقسطة ليسلمها له واليها الثائر سليمان الأعرابي كما يعلن الرماحس الثورة في الجزيرة الخضراء، وبذلك يتم حصار الأمير عبد الرحمن من الشمال والجنوب ، تمهيداً للقضاء عليه .غير أن تلك المؤامرة لم تنفذ كما خُطط لها، وبالتالي فشلت في تحقيق أهدافها ، ذلك أن الصقلبي عندما نزل بأسطوله وقواته بساحل كورة تدمير (مرسية بشرق الأندلس سنة 192 هـ) طلب المساعدة من الأعراب ، فلم يسجب له ، بحجة أن شارلمان لم يصل بعد إلى سرقسطة، وهنا انتهز الأمير عبد الرحمن الفرصة وأسرع إليه بجيشه وأحرق أسطول وهرب الصقلي إلى كورة بلنسية حيث قتل هناك على يد أحد البربر.

وبعد ذلك اتحه شارلمان بجيشه عبر جبال البرتات نحو سرقسطة لك يتسلمها من واليها الأعراب تنفيذاً للاتفاق بينهما، غير أن أهالي المدي بزعامة الحسين بن يحي الأنصاري ثاروا ضد الأعراب ورفضوا تسليم مدينتهم لملك فريحي ، مما أدي إلي غضب شارلمان ، وأخذه الأعرا كأسير وحصاره بسرقسطة ، في نفس الوقت وصلته أنباء بحدو اضطرابات داخلية في بلاده ، فاضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى به الفرنجة مصطحباً معه الأعراب ، وعند مرور جيشه بأحد ممرات جب

اليرتات (باب الشزري) بجبال البرتات تعرضت مؤخرة جيشه لهج قادة أنباء الأعراب وحلفاء لهم من قبائل الشكنس الأسبانية وانتهي الهج

بتحرير الأعرابي من الأسر ، والقضاء على مؤخرة جيشه شارلمان بقيا رولان.

وعقب ذلك استولي الحسين بن يحي الأنصاري على مقاليد الأمور سرقسطة سنة 165 هـ ، فحاصره الأمير ، واضطر الأنصاري! الدخول في الطاعة وإعلان الولاء ، ولكنه لم يلبث أن تمرد وأعلن الثور من جديد ، فحاصره الأمير من جديد ودخل سرقسطة عنوة، وأنز الهزيمة بأتباع الأنصاري وقتله ، ومعظم أتباعه . أما الرماحي فعندما سم اصول قوات الأمير عبد الرحمن على الجزيرة الخضراء أسرع بالهرب هله أحد المراكب إلى المغرب ، ومنها التجأ إلى العباسيين في المشرق.

– بعض مظاهر الحضارة الأندلسية في عهده

رغم ما شهده عهد الأمير عبد الرحمن الداخل من ثورات و مشكلات خلية إلا أنه لم يغفل الجوانب الحضارية ، فكان كما تصفه المصادر تاريخية فصيحاً بليغاً ، شاعراً ، وتأثرت الأندلس في عهده بمظاهر الحضارة الشامية ، ولعل هذا يرجع إلى مولده ونشأته ببلاد الشام موطن آبائه وأجداده الأمويين والتي ازدهرت فيها الحضارة في العصر الأموي ،

وعلاوة على ذلك فإن جند الشام الذين استقروا في الأنلدس بعد الفتح نقلوا معهم الكثير من العادات والتقاليد الشامية.

فمن الناحية الأدبية : تأثر شعراء الأندلس في تلك الفترة الأولي بشعراء الشام في الالتزام بالوزن والقافية ، ومن ناحية أخري كانت للأمير عبد الرحمن الداخل عدة أشعر ورسائل وخطب تشبه ما كان لدي أمراء و خلفاء الأمويين في الشام وخاصة رسائله إلى عماله (ولاته) بالاقاليم أو الثائرين عليه ، ومن أمثلة أشعاره في الحنين إلي وطنه الشام:

أيها الراكب الميممُ أرضي أقرأ من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ومالــكيه بأرض.ومن شعره أيضاً عندما شاهد نخلة في منية الرصافة بقرطبة أثارت شجونه وتذكر وطنه الشام:

تبدت لنا وَسَط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهي في التغرب والنوي وطول التنائي عن بيئاتي وعن أهلي؟

ومن ناحية تعمير العاصمة قرطبة بالقصور والمساجد والبساتين : فقا- اهتم الأمير عبد الرحمن بالعمران اهتماماً بالغاً ، وحرص على أن تشبه قرطبة عاصمة حكمه مدينة دمشق حاضرة الأمويين في الشام ، ولذا اعتني بقصر الإمارة في قرطبة ، وهو قصر قديم تداولته الملوك والحكام في أسبانيا، وتذكر المصادر أن الحكام الأمويين أضافوا العديد من المحاسن إلي قصر الإمارة ، وأجروا فيه المياه العذبة المحلوبة من جبال قرطبة ، وكان يضم البساتين والحدائق الأنيقة.

كذلك أعاد الأمير عبد الرحمن بناء جامع قرطبة في سنة 169 هـ وتأثر في ذلك بمؤثرات شامية خاصة في زخارفه المعمارية ونظام العقود المزدوجة والسقف ووضع المئذنة ن ويبدو أنه استعان في بنائه ببنائيين شاميين.

وحرص الأمير عبد الرحمن أيضاً على بناء القصور الخلون خارج العاصمة فأقام قصر الرصافة في ضواحي قرطبة تشبها برصافة جده وقام ببادية الشام ، وتذكر المصادر أن قصر الرصافة ابتناه الأمير عبد الرحمن في بداية عهده شمال غرب قرطبة لتنزهاته ، وسكن فيه بعض الفترات للراحة والتمتع بجمال الطبيعة ، بعيداً عن ص خب العاصمة قرطبة وازدحامها بالسكان ، فاتخذ بمنيته الرصافة مقراً حسناً وأحاطه بالبساتين والحدائق " ونقل إليها الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسعر ومولاه إلى الشام من النوي والحبوب الغريب حتى نمت ، وأثمرت بغرائب من الفاكهة انتشرت بعد قليل في كل نواح الأندلس ، ومن ذلك الرمان السفري الذي يُنتسب إلى سفر الكلامي عرب الشام.

أما من الناحية المذهبية فيذكر أستاذنا د. العبادي أن الأندلسيين تأثر أيضاً بأحد المذاهب الفقهية التي ظهرت في الشام وهو م ذهب الإمام الأوزاعي فقيه الشام المعروف (ت 157 هـ) وكان فقيهاً مرابطا في ثغر بيروت في مواجهة الخطر البيزنطي على السواحل الشامية ، اهتم مذهبه بأحكام الحرب والجهاد ، وهو ما يتناسب مع ظروف أهل الأندلس واهتمامهم في تلك الفترة ، حيث كانوا في حالة جهاد دائم والامارات الأسبانية والفرنجية في الشمال ، ولذا كانوا يميلون إلى مذهب الفقيه الأوزاعي ، وقام بنقل مذهبه من الشام بعض الفقهاء الأندلسيين.

الامير هشام الرضا 172 ـ 180هـ/ 788ـ 796م

ذكروا ان عبد الرحمان لما حضرته الوفاة أوصى ابنه المعروف عبد الله البلنسي الذي كان حاضرا بالقصر للسهر على والده المريض لما أحس عبد الرحمان بدنو الاجل قال لعبد الله: " من سبق اليك من اخوتك، فارمي اليه بخاتم الامارة، فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وان سبق اليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له. "

فلما أسلم الداخل روحه لله، كان هشام هو من وصل الى القصر، فرمى اليه عبد الله الخاتم وبايعه الخاصة والعامة يوم الاحد1/ جمادى الاولى/172هـ 7/ تشرين الاول/ 788م . كان الامير الجديد رجلا كريما فاضلا وعاقلا حسن التدبير، وهي سجايا ومحامد أدركها والده فيه، كما التمسها من جلساء هشام ، فكثيرا ما كانوا يذكرون له،:" أن هشام إذا حضر مجلسا امتلأ وتاريخا، وذكرا لأمور الحرب ومواقف الابطال ".

ومن أهم الازمات الداخلية:

1 ـ مشكلة أخيه سليمان: الذي امتنع عن مبايعته، وأعلن التمرد بطليطلة، وبايعه أهلها، وما لبث ان انظم اليه أخوه عبد الله بعد سبعة أشهر من مبايعة هشام الرضا، وقبل ان يصل سليمان بجيشه الى قرطبة تصدى لهشام وارغمه على التراجع واتجه نحو اقليم تدامير بشرق الاندلس تاركا أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة، تقدم هشام نحو طليطلة وفرض عليها حصارا دام حوالي شهرين، مما ارهق اهلها الذين تنادوا بالصفح، فعاد هشام القهقرة نحو قرطبة، على ان عبد الله لم يجد بدّا من طلب الصفح، والمصالحة، فعفا عنه هشام، اما سليمان فقد توار عن الانظار، فضاقت به السبل ، فقرر ان ينظم الى اخيه عبد الله، وطلب الامان، فاشرط عليه هشام مغادرة ارض الاندلس، ومنحه ستين ألف دينار، ونزل بلاد المغرب. ثم الحقه بأخيه عبد الله بد ان عوضه مالا وفيرا، وهكذا تخلص الامير هشام من اولى المشكلات التي صادفته في بداية الطريق .

-2أهم الثورات التي واجهها هشام.

ثورة البربر في تكرونا 178هـ/795:

ثار البربر في هذه المنطقة من اقليم رندة، وشقوا عصى الطاعة، وعاثوا فيه فسادا، وقتلوا عددا كبيرا من سكان العرب، فأرسل اليهم هشام قواته فأنذرتهم في البداية ولم يمتثلوا، فلم يجد قائد الجيش بدّا من مهاجمتهم ، ولاحقهم داخل أحياء المدينة ولما لم يستطيعوا المواجهة تسللوا الى خارجها وتوجهوا نحو مدينتي طلبيرة وترجيلة، وظلت مدينة تاكرونا خاوية طوال سبع سنين .

الثورات في منطقة الثغر الاعلى:

اندلعت الثورة الاولى في اقليم طلوشة 182هـ/789م وقائدها سعيد بن الحسين الانصاري انتقاما لمقتل والده، واستولى على سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى واثار الفتنة النعرات القبلية بين العصبيات العربية وانتهى الامر بمقتله على يدي موسى بن فرتول القومس .

أما الثورة الثانية فقد تزعمها مطروح بن سليمان الأعرابي في مدينة برشلونة وتوسعت ثورته على كامل الثغر الاعلى، فاستولى على سرقسطة ووشقة فقابل هشام ذلك بإرسال لجيش بقيادة أبي عثمان عبيد الله الذي تمكن من استرجاع طلوشة وحاصر سرقسطة، ولما ضاق أهلها ذرعا تخلصوا من مطروح، وأرسلوا رأسه الى قائد الجيش الذي دخل سرقسطة دون مقاومة، واستعاد هشام سيطرته على مناطق الثغر الاعلى واصبح مطلق التصرف فيها .

دخول المذهب المالكي في عهده:

شهدت فترة هشام دخول المذهب المالكي، إذ كان أهل الاندلس يتبعون المذهب الامام الاوزعي المتوفى سنة 157هـ وكان يومئذ تلميذه صعصعة بن سلام الشامي صاحب الصلاة بقرطبة وقاضيها(ت192) ، وكان أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمان بن زياد اللّخمي المعروف بشبطون أول من أدخل مذهب الامام مالك الى الاندلس بعد عام من ولاية هشام، وفي المدينة أخذ عن الامام مالك الذي سأله عن الامير هشام، فأخبره عن مذهبه وحسن سيرته فقال مالك: "ليت الله زين موسمنا بمثله" ، واليه يعود الفضل في نقل الموطأ الى الاندلس .

رحل في عهد هشام كوكبة من رواة الحديث منهم فرغوس بن العباس، وعيسى بن دينار، وسعيد بن ابي هند، فلما عادوا الى الاندلس تحدثوا عما رأوه من فضل مالك وسعة علمهن وجلال قدرهن ما رفع به قدره عند أهل الاندلس، فانتشر رأيه ومذهبه ن وكان ممن أخذ عنه الموطأ الفقيه يحي بن يحي الليثي، وكان طالبا يومها وأشر عليه زياد بالرحيل الى الامام قبل أن يوافيه الاجل ففعل، وأخذ عم مالك وسمع منه الموطأ ولازمه، وهو من سمع بمصر عن اللّيث بن سعد، وعبد الرحمان بن القاسم، وبمكة عن سفيان بن عيينة

.الحكم الربضي 180–206هـ/ 796–822م

:الَحكَم ومشكلة أعمامه

كانت أولى المشكلات التي واجهها الحكم بن هشام، هي مشكلة عميه، عبد الله وسليمان، اللّذان نازعاه الحكم، وكانا من قبل قد وقفا في وجه والده هشام بن عبد الرحمان الداخل الى الاندلس، الذي حاصرهما في طليطلة، وانتهت المواجهة بأن سالمهما على أعطيات من تركة والدهما، وأرغمهما على مغادرة الاندلس .ولما بلغ نبأ وفاة هشام بن عبد الرحمان عبد الله وسليمان، وهما بالعدوة الجنوبية، أسرع عبد الله واجتاز المضيق وكان في هذه الاثناء قد بلغه قتل أخيه سليمان، فخاف على .واتجه نحو ريف الاندلس نفسه، ولم يجد مخرجا سوى طلب الصلح مع ابن أخيه الحكم الذي استجاب لطلبه وعفا عنه، ووقع الصلح بينهما سنة ست وثمانين ومائة ولازم عبد الله من يومئذ مدينة

بلنسية، ولقب بعبد الله البلنسي، وأجرى عليه الحكم الارزاق، ومنحه راتبا بألف دينار .شهريا، ومنحة زائدة قدرها ألف دينار سنويا.

وأما عمّه سليمان فقد اجتاز هو الآخر البحر، قادما من مكان إقامته بطنجة سنة 182هـ 798م) أي في العام الثاني من ولاية الحكم، وقاد حملة عسكرية على قرطبة، وفي شوال من السنة نفسها، دارت بينهما معركة شرسة انهزم فيها سليمان، وبخيطة اشتبكت قواته مع الحكم ومنيت بالهزيمة، فانهزم للمرة الثانية، ثمّ عاود الكرة وزحف على رأس جيش من البربر، وفي أستجه، التقى الجمعان ودارت بينهما معركة عنيفة، انهزم فيها . سليمان، وفي سنة 184هـ 800م

محنة اهل طليطلة: مع بداية ولاية الأمير الحكم، كان معظم سكان طليطلة يتشكلون من المولدين الإسبان المتحولون إلى الإسلام، وهم الذين من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، ونشئوا على الإسلام، و امتزجت دماؤهم بدماء العرب والبربر الفاتحين، وقد تكاثرت هذه الشريحة بسرعة مذهلة حتى أصبحت تمثل الغالبية الساحقة من سكان الأندلس، والى جانب هذه الفئة كانت هناك فئة أخرى لا تقل أهمية من حيث عددها ونفوذ أفرادها في المجتمع الطليطلي، ألا وهي فئة المستعربين وهم الاسبان الذين اندمجوا وكان قد أغراهم بذلك حصانة مدينتهم . (في المجتمع العربي وبقوا على مسيحيتهم الواقعة.....، ومناعة أسوارها، وبعدها عن عاصمة الخلافة قرطبة وغالبا ما كانت تقف هذه حاجزا بينها وبين قرطبة، التي كان غياب الولاء المخلص لها في هذه المدينة، الطامحة . (دائما إلى انتحال دور من الادوار يعيد إليها بعض أهميتها السابقة".

وعند وصول الحكم بن هشام الى سدّة الحكم، كانت المدينة قد تألبت عليه، بقيادة أحد المولدين ويدعى عبيدة بن حميد، فانضمت إليه جموع المولدين والمستعربين والبربر، فتصدى له عمرو بن يوسف، وذلك باستمالة نفر من طليطلة يدعون بني بخشي، فثاروا على عبيدة بن حميد وقتلوه، وحملوا رأسه إلى عمروس فحملها بدوره الى الحكم، وسُرّ بذلك، وأجزل مكافأة إلى بني بخشي وأنزلهم عنده.

وحتى هذا الوقت لم يكن الحَكَم قد أعمل الحيلة للقضاء على معارضيه في طليطلة، ذلك أنه كان في المدينة شاعر مولد، يدعى غربيب بن عبد الله، كان على عداء شخصي قديم مع أمير قرطبة الجديد، استغل بمهارة فائقة إمكاناته الشعرية، فألهب بقصائده القومية صدور أتباعه من المولدين، والساخطين على أمراء بني أمية، ودعاهم إلى الثورة، وتجاوب أهل طليطلة وقد ذكر ابن القوطية مكانة هذا الشاعر بين أهل طليطلة فقال:" ....وكان من أهل الحكمة والوفاء، وكان أهل طليطلة يستندون إلى رأيه، فلم يطمع الحكم فيهم أيام غربيب."(.

وبموت هذا الشاعر خمدت رياح الثورة إلى حين، إلاّ أن الحكم أدرك بفطنته أنّ أهل طليطلة سيعودون إلى التمرد والانتفاضة، فلم يمهلهم المبادرة والالتفاف ثانية، كلّ ذلك تمّ في هدوء وروية، ولم يكترث لهذه الاضطرابات والثورات داخل طليطلة بل عالجها بمنتهى الهدوء والذكاء، واختار لهذه المهمة مولدا من بلدة وشقة من بني جلدتهم وهو عمروس بن يوسف وكان قد أظهر نجابة ومراسا في تنفيد المهمات الموكلة اليه من قبل الحكم، فظل على هذه الحال الى أن اطمأن اليه، واستقدمه وأكرمه ونعمه، وأطلعه على نواياه، وعزمه في القضاء على الثائرين في مدينة، وابدى لعمروس موافقته في تنفيد

المهمة، فكتب الحكم على الفور إلى أهل طليطلة يقول: "إني اخترت لكم فلانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه واعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومواليا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم.

أخذ عمروس يتظاهر بالكراهية للأمير، وأنه أكثرهم حقدا عليه، ومازال بهم حتى أكسبوه ثقتهم، وأطلعوه على أسرارهم وظنوه واحدا منهم، وأنه من رجالات الثورة التي تجب طاعتهم وتنفذ أوامرهم وحتى يقوي عندهم الشعور بالاعتزاز والاستقلالية عند أهل طليطلة، أقنعهم بأن الحكومة في قرطبة ماضية في التنازلات تجنبا للمصادمات معهم، وعمد إلى بناء قلعة خارج المدينة عند نهر تاجة له ولجنده، ويترك سكان طليطلة أحرارا داخل المدينة. وهي الخطة التي حبك فصولها الحكم بن هشام حين قال: "...وأن تقول لهم أني رأيت أن هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان إنما هو بمداخلة الحشم لكم وبينكم وبين نسائكم، فكنت أرى أن أبني قصبة في جانب المدينة يسكنها الحشم فيكونون بمعزل عنكم وتسلموا من شرهم.).

فلما أيقن أن الطليطليين استكانوا واطمأنوا لوليهم الجديد، قرر تنفيذ المهمة ، وبدأت فصول المؤامرة، بأن أقام عمروس وليمة في هذه القلعة، ثمّ بعث الى الحكم سرّاً ليمده بقوة عسكرية في الوقت المناسب، ولكي يبقى على سرية الخطة أذاع أنه بصدد إعداد حملة عسكرية الى الثغور الشمالية على الحدود الاسبانية بقيادة ابنه عبد الرحمان، واتفق على أن يمرّ في طريقه على طليطلة ، واستمر عمروس في الإعداد للمؤامرة الشنيعة، فدعا جميع المناوئين ومن لا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة، ولم يستثن السُرات والأعيان، وكانت خطته التي رسمها ان يدخل هؤلاء من باب ليخرجوا من آخر، فمن دخل منهم تخطفه

الجند واقتيد إلى الجهة التي اعدّت للتصفية، ثم رمي في الحفرة التي أعدّها عمروس لهذا الغرض ، ولم يتفطن المدعوين الى ما كان يحدث خلف أروقة القلعة إلا بعد أن نُحر منهم سبعمائة شخص، ذلك أن أصوات قرع الطبول والموسيقى حجبت عنهم صراخ وعويل المستغيثين، وهرع من تبقى منهم إلى خارج القلعة فراراً من المذبحة، وذعر أهل طليطلة للمذبحة التي عرفت في التاريخ بوقعة الحفرة وخمدت بذلك رياح المعارضة وعاد الاستقرار والهدوء إلى المدينة.

هياج الربض في قرطبة:

تعرف الحادثة بثورة الربض وهي كلمة عامة تعني الضاحية، أو الحي وجمعها أرباض وهي تعني المنطقة السكنية المستجدة في قرطبة العربية، بعد بناء الجسر الممتد الى ما وراء الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير.

وكان معظم سكان الربض من المولدين، وأصحاب الحرف وصغار التجار وسكن إلى جانبه ثلة من الفقهاء المالكيين الذين وجدوا في هذا الخليط البشري مجالا فسيحا لممارسة نفوذهم، لما لمسوه في هذه الفئة من الامتثال والطاعة، فضغطوا من خلالهم على (الامير الجديد، الذي أعرض عنهم .

تعود أسباب هذه الثورة الى جملة من الاحداث التي بدأت بالظهور عند تولي الحكم بن هشام الإمارة، كانت أولاها، النفرة الحادة بينه وبين فقهاء المالكية، الذين علا شأنهم في عهد والده هشام الاول، امتعض الفقهاء لهذا الاعراض والتجاهل لمكانتهم كفئة لها وزنها الديني والاجتماعي، فاستبد بهم القلق على نفوذهم المتلاشي، وزعامتهم المفقودة، ولم يجدوا مسلكا لتحطيم خصمهم المعاند، سوى التشهير بسلوكه الأخلاقي، واتهامه

بالمروق والهرطقة الدينية، وشرع ثلة من الفقهاء من تفعيل المؤامرة، وحاولوا الغدر به سنة 189هـ وإزاحته عن الحكم، وتواعدوا بالحضور عند محمد بن القاسم القرشي المرواني عم هشام بن حمزة لأخذ البيعة على أهل البلد، وأبلغوه أن الناس أجمعوا على إمرته لهم، فطلب منهم إمهاله ليلة، لتدبير الامر، ويستخير الله تعالى، ومضى يقلب الامر ويقدّر عاقبته، إلاّ أنه تهيب الموقف وخشي على نفسه، فلم تطاوعه نفسه على الاستجابة لطلبهم، فهب مسرعا نحو الحَكَم قبل أن تصله أخبار المؤامرة، فأعلمه الامر وأنه على بيعته، فطلب الحكم التبين من جلية الأمر، وأوفد معه بعض ثقاته، فأجلسه محمد في مكان خفي لا يراه فيه أحد ليسمع ما يدور بين الحضور، فلما حضر القوم أراهم محمد بن القاسم المخافة على نفسه وأبان لهم خطورة الأمر، فقال لهم: »هذا الذي تدعونني اليه لا أثق بمن سميتم دون أن أسمع منهم كما سمعت منكم، فتطيب نفسي، وأدخل في الامر على قوة وبصيرة . « وسألهم تعداد أسمائهم ومن معهم، فأملوا عليه جميع أسمائهم ومؤيديهم من أعيان البلد، وصاحب الحكم دائب في التسجيل، وتواعدوا معه على اللقاء يوم الجمعة في المسجد الجامع، ثمّ اتصلّ بالحكم وكان ذلك يوم الخميس فما حلّ الليل، حتى كان الجند قد قبضوا عليهم ثمّ امر بهم فصلبوا جميعا عند قصره على شاطئ النهر، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً ، وكان من بين المصلوبين الفقيه ابو زكريا يحي بن مضر القيسي، وكان قدوة في الدين والورع، وهو أحد تلاميذ سفيان الثوري ومالك بن أنسلم تشر المصادر إلى حضور يحي بن يحي اللّيثي في هذا الاجتماع، وإن كان يستبعد إسهامه الخفي في حبك المؤامرة، لذلك سارع إلى مبارحة مدينة قرطبة فور سماعه . (باكتشاف الأمر واعتقال الفقهاء.

وتوقيا من كل طارئ أمر الحكم بحفر خندق حول السور، وأحدث أبوابا جديدة في قصره، وعبّأ قصره بالسلاح والعتاد، يقول صاحب كتاب نهاية الأرب ... »فشرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وحفر خنادقها، وارتبط الخيل على بابه واستكثر من المماليك ورتب جنده لا يفارقون باب قصره بالسلاح، فزاد ذلك في حقد أهل قرطبة وتحققوا أنه يفعل ذلك للانتقام منهم. « وعهد القيادة لأحد زعماء الجالية المسيحية بقرطبة ربيع القومس.

وبالرغم ما نزل من محن وابتلاءات على أهل قرطبة على يد الحكم إلاّ أنهم ظلّوا يتحلون بالصبر والجلد، وبقوا على عداوتهم وحقدهم عليه، لا يجنحون لحديث سوى حديثهم عن الحكم وما اقترفته يداه في حق بني جلدتهم من العلماء والفقهاء، وفي كتاب المغرب لابن سعيد: »فأكثروا الخوض، وأطالوا الهمهمة، وفزع رؤوسهم إلى السمر في مساجدهم بالليل مستخفين من السلطان مدبرين عليه وقد كان خائفا من ثورتهم مهتما لدخلتهم حذرا منهم مستعدا لهم مرتقبا لوثبتهم مرتبطا الخيل على باب قصره نوبا بين غلمانه «. (ابن سعيد،1997،ص42).

وحدث ذات يوم وهو راجع من رحلة صيد في جنوب العاصمة قرطبة، وعند عبوره حي الربض، تجمع مجموعة من الافراد ينتظرون قدومه فتعرضوا له بالقول وصفقوا عليه بالأكف، فقبض الحراس الذين كانوا بمعيته على عشرة منهم، فأمر الحكم بصلبهم في الحين .

ظلت الأحداث في مدينة قرطبة في احتدام مستمر إلى أن وقع حادث بسيط في 13/ رمضان/202 الموافق 26/مارس/818م، قلّب الاوضاع رأسا على عقب،

وملخص هذه الحادثة، أن جنديا من حرس الأمير الحكم دفع سيفا إلى صَيْقل فماطله، والغلام يتردد عليه دونما الظفر بحاجته، والصيقل يتهكم به فأغلظ الغلام للصيقل، وتلاسن الطرفان، فما كان من الجندي إلا أن استل سيفه وطعن الحداد فارداه قتيلاً. ، فأثار ذلك غضب أهل الحي واجتمعوا عليه وقتلوه، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير، وكان أهل الربض القبلي أول من أشهر السلاح، وانضم إليهم أهل المدينة والأرباض، في حين انحاز الأمويون ومواليهم إلى القصر(ابن سعيد،1997ج1ص15) وتلاحق أهل الربض بعد أن أغلقوا متاجرهم ومحلاتهم وقوت جموعهم واتجهوا نحو قصر الإمارة وأحاطوا بالقصر يريدون اقتحامه والقضاء على الحكم وحاشيته. وارتقى الحكم إلى السطح وجال في شرفات القصر، وأظهر رباطة جأش نادرة، ولم يكترث للحادثة، وبقي على حالة من الهدوء والسمت، وكان من على شرفات قصره يراقب تلاحم العامة بالجند ويطيل النظر والتفكير، وفيما الاقتتال على أشدّه، دعا الحكم بالغالية وهي من العطر النادر، فجاءه بها الخادم بزنت فأفرغها على مفارق رأسه ولحيته، فاستراب الخادم وأنكر ذلك وقال : »وأية ساعة طيب هذه؟.« فردّ عليه الحكم: » أسكت لا أمّ لك، ومن يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره« واستبسل بعد ذلك للمواجهة والموت«. (مجهول،1989،ص166)، ونال هذا الموقف من التأويل عند المؤرخين مذاهب شتى، فمنهم من ينفي صفة الشجاعة وثبات الجأش على الحكم وينعته بالخساسة وبلادة الحس، وفريق آخر يرى ذلك من حسن التدبير، والجسارة المطلوبة في مثل هذه المواقف.

اشتد وطيس الحرب، وهبت حشود العامة، وتدفقت على ميدان الحشد وتعالت الأصوات والهتافات، فعمد الحكم إلى مكيدة لفض الجموع، فبعث رجلين ممن يثق بهم

هما : صاحب الصوائف عبيد الله بن عبد الله البلنسي، وإسحاق بن المنذر القرشي على رأس فرقة من الفرسان والرجالة، واستدرجوا الحشود الغاضبة إلى داخل الجسر، وتمكنوا من العبور مستخفين إلى باب المدينة، والثوار لا يشعرون بهم لانشغالهم بالقتال، وعندما وافوا الربض التقوا مع بعض المتطوعين من الموالين لهم، وشرعوا في إضرام النيران في البيوت، ودسوا من أذاع الخبر بما نزل بهم في دورهم وعيالهم وولّو مسرعين، فلما شاهدوا ما حدث لبيوتهم، ارتبكت صفوفهم، وما أهمهم سوى إنقاذ عوائلهم، فوقعوا بين سيوف أعدائهم، وفشا فيهم القتل وتتبعهم جند الحكم في الطرق والأزقة لا يلوون منهم على شيء، وفرّ منهم من استطاع الهرب ونجا بنفسه. وقبضوا على ثلاثمائة منهم ممن ثبتت عليهم الإدانة، وكادت آلة الموت التي أدارها الحكم أن تسحق جميع أهل الربض، لولا أنه أوقف العملية شريطة إلغاء معالم الحياة في الربض » وأقسم بمجرحات الإيمان أن لا يمشى عن الربض حتى يدعه دكّا فصيره على عظمه وهوله وأصالة بنائه مزرعة «

أرهبت المذبحة سكان قرطبة، وتحدثت لهولها الركبان، والتصقت بفاعلها الحكم حتى لقب بالربضي، وتميز باسمه عن من حاكه في التسمية من أحفاده الأمراء كالحكم بن عبد الرحمان الناصر الملقب المستنصر. واستكمالاً لمخططه التصفوي أصدر الحكم أوامره بطرد أهل الربض الجنوبي من الأندلس، ونودي بالأمان على أنّه من بقي من أهل الربض بعد ثلاثة أيام قتل وصلب. وكانوا ألوفا من أفاضل الناس وأكثرهم شهامة، وحسب تقدير المؤرخين فقد كان عددهم لا يقل عن عشرين ألف. وساروا على وجوههم في اتجاهات مختلفة، فقسم منهم يمم نحو طليطلة موطن المولدين، وكانوا حديثي عهد بالجزرة

التي تدحرجت فيها رؤوس إخوانهم من الأعيان والوجهاء، ومن بقي منهم خرج مستخفيا بعد مدّة الإمهال، وغادروا مدينتهم قرطبة بنسائهم وأولادهم وما خفّ من أحمالهم، وترصد لهم الجند والغوغاء ينهبون أموالهم، وكان ممن امتنع عنهم قتلوه لقد غاب عن الحكم بن هشام أن هؤلاء الثائرين لم يكونوا طامعين في ملكه بل كانوا يطلبون العدالة.، فلو تريث قليلا لركضت الأحداث في الاتجاه الصحيح. فاتجهت أعداد إلى طليطلة، إلاّ أن غالبية الربضيين، فضلوا مبارحة أرض الأندلس التي لاقوا فيها أشد أنواع التنكيل والإبادة، ويمموا نحن العدوة المغربية، أين كان سلاطين الأدارسة قد شرعوا في بناء مدينة فاس وإعمارها، فصادف ذلك هواً عند المولى إدريس الثاني الذي رحب بالمهاجرين الأندلسيين، الذين كانوا قد نزلوا بضواحي المدينة، وطلب منهم الإقامة في المدينة التي أسسها والده إدريس الأول، فقبلوا طلبه وشرعوا منذ الوهلة الأولى في بناء منازلهم، فوظفوا مهارتهم المهنية والزراعية ونقلوا بذلك معهم مظاهر الحضارة الأندلسية، وأضافوا إلى المدينة مسحة أندلسية في جميع مناحي الحياة، في الأبنية البيضاء والحدائق الجميلة التي عرفت مدينة فاس بعدها بمدينة الأندلسيين.

أما الفريق الآخر، والذين كانت تحدوهم الرغبة والطموح في الابتعاد عن الأندلس، فقد اتجهوا نحو الإسكندرية التي كانت تشهد وضعا مضطربا، فقد كانت عرضة لهجمات العرب من قبيلة لخم وجذام، فاستغلوا هذا الوضع واستولوا على المدينة ومكثوا فيها عشر سنوات، وكان أملهم أن يبنوا إمارتهم فيها، إلا أن الخليفة العباسي عاجلهم بالرحيل، حين أرسل قائده الفارسي عبد الله بن طاهر الذي عينه على ولاية مصر، وكلفه ببسط نفوذه كاملا على أرجاء مصر ومنها الإسكندرية باعتبارها مدينة

ثانية، وإرجاعها إلى حاضرة الخلافة العباسية، فسار إليها في صفر من سنة 212هـ مايو 827م وحاصرها لمدة عشرة أيام، واستجابوا له، بشرط أن يمدهم بالسفن التي تقلّهم إلى حيث أرادوا.

واتفق معهم على أن لا ينزلوا في أي أرض تابعة للعباسيين، فركبوا البحر ومخروا عبابه إلى أن وصلوا جزيرة كريت (أقريطش) التي كانت بيد البيزنطيين، فاستولوا عليها بزعامة أبو حفص عمر البلوطي، وهناك رموا بعصا ترحالهم، ووجدوا فيها من الحظ ما افتقدوه في الأندلس ومصر، وأنشؤوا مدينة اتخذوها عاصمة لهم، وأسسوا قاعدة لحكمهم، وأحاطوا مدينتهم بخندق كبير، عرفت باسم الخندق الذي تحول عند الأوربيين إلى chandax ثم كندية candia (وهو اسم المدينة الحالي).

على أن البيزنطيين حاولوا استعادة الجزيرة بمعية الجنود الروس في الحملة البحرية التي قادها يوحنا الأول ضد مدينة كريت، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل، ويرجع ذلك إلى استقواء الأندلسيين بالفاطميين الذين أمدوهم بالمعدات العسكرية، باعتبارها حصنا أماميا لصد عدوان البيزنطيين. وقد استمرت سلالة الأندلسيين الربضيين في جزيرة كريت إلى سنة 350هـ أي حوالي قرن ونصف حينما استعادها البيزنطيون بقيادة نقفور فوكاس الذي أصبح إمبراطورا فيما بعد.

عبد الرحمان بن الحكم(عبد الرحمان الاوسط 206–238هـ 822–852م

كان هذا الامير على النقيض من والده في كثير من الصفات، فقد كان أقل تمسكا بنظرية الحكم المطلق ، وفي الوقت نفسه غصت مجالسه بالفقهاء ورجال الدين الذين

كانوا شبه مغيبين في عهد والده الحكم وفي المجال الثقافي فقد كان ميالا للادب، وذو احساس مرهف وذوق اجتماعي رفيع ونشاط عمراني بيّن .

لقد شهدت الساحة الثقافية تحولا كبيرا في عهد هذا الامير بتقريب رجال الدين، فقد انتعشت في عهده نوادي الادب والعلم والموسيقى، وبرز رجالات مختلف الفنون ومنهم يحي بن الحكم الغزال، وعباس بن فرناس والموسيقار علي بن نافع الملقب بزرياب القادم من بغداد وقد حمل معه فنون الشرق ، وهو في الحقيقة نقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية، ولقيت مدرسته الموسيقية نجاحا كبيرا وكان له تأثير كبير في مجال الطهي وتقديم الاطعمة والالبسة والاعتناء بالهندام، وهو " اول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة، والشكل وترتيب الخدمة، وكسى الخلافة أبهة الجلالة، فشيّد القصور وجلب اليها المياه، وبنى الرصيف، وأحدث الطراز واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة وفخمّ ملكه"، " وألحق بقصره حوضا كبيرا لتجميع الماء استعمله الناس للسقاية، واقام الجسور، وزاد في جامع قرطبة رواقين...ورتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة...

محمد بن عبد الرحمان الثاني 238-273هـ 852-886م

جاء محمد الى الحكم بعد تزكية فتيان القصر من الصقالبة الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير داخل القصر حيث تكتموا على موت عبد الرحمان يتم مبايعة محمد الذي فضلوه على اخيه عبد الله، وكانت هذه اول مرة في تاريخ المسلمين في الاندلس، اين تبرز ظاهرة تعيين الحكام من الصقالبة، لم تكد تمضي ايام قلائل على مبايعة محمد الاول حتى أطلت فتنة المولدين في طليطلة الذي أشهوا اسلحتهم وأعلنوا الثورة بهذه المدينة ورامتنعوا ان يبايعوا الامير الجديد ، مطالبين باطلاق سراح اسراهم المعتقلين في قرطبة، وبالرغم من

استجابة محمد الاول لمطالبهم الا انهم استمروا في العصيان، وهاجم الثائرون قلعة رباح، واحدثوا فيها خرابا ودمارا وقتلوا الكثير من من سكانها ، واستطاع الامير بعد ذلك من استعادة القلعة بالقوة وعاد اليها من فرّ من سكانها.

لم تخمد عزيمة الثوّار بطليطلة بالرغم مما أُلحق بهم من هزائم، اقدموا رغم ذلك غلى الاغارة على المدن المجاورة وغاثوا فيها فسادا، وحتى يقضي محمد الاول الثورة ويقتلع شأفتها فقفد عمد الى تجهيز جيش قوي، ولم يقتصر على هذا فحسب ، فقد استنفر العرب الذين تدفقوا عليه من كل مكان، وازاء تجييش الامير لهذه الاعداد الهائلة، تهيب الثائرون الموقف وشعروا بالخطر المحدق بهم، فالتمسوا المساعدة من أردونيو الاول ملك أششتريس الذي خلف راميرو بعد وفاته في عام 235هـ/350م وهو ما كان ينتظره هذا الملك في تأجيج الحرب الاهلية بين المسلمين، وأعلن انضمامه غلى جانب الثائرين ، نشبت المعركة بين الطرفين وكانت فيها الدائرة على الثائرين فأسر منهم عشرين ألف .

وعلى أي حال فقد شهد عهد محمد الاول أعنف الثورات ، التي كادت ان تطيح بالحكم الاموي في الاندلس، وقد انفقت الامويون جهودا مضنية، وخسائر فادحة في الارواح، وفي مخزونات الدولة المالية، وكانت ثورة ابن حفصون اعنف هذه الثورات واكثرها انتشرا .

الامير عبد الله بن محمد275 – 300هـ/ 888–912م

بويع الامير عبد الله في اليوم الذي قبض فيه أخوه المنذر في منتصف 275هـ 888م بدأ حكمه الطويل والبلاد ترزح تحت ضربات الخوارج المتغلبين، وعمت الثورات في كل ارجاء الجزيرة، حتى شملت الكور ولم تعف قرية او مدينة، ولم تقتصر هذه المرة على

الجهات التي سكنها المولدون بل تعدتها الى زعماء القبائل العربية وهي الفرصة التي طالما تحينهل هؤلاء لاستقلالهم وتدعيم سلطانهم ، ولم يتخلف البربر عن مناهضة السلطنة الاموية، فاعتصم زعماؤهم بالحصون ، واندلعت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر، وحتى بين العرب أنفسهم، حتى انتزت كل فرقة بما وقع تحت سيطرتها من الجهات، فاستقل العرب بالبيرة وجيان ومنتشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل المولدون بالثغر الاعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية، وتحولت مدينة اشبيلية الى مسرح للمعارك العنيفة بين العرب والبربر ، وفي الجهة الجنوبية الغربية سيطرت قوات ابن حفصون وهي اخطر العصابات المتمردة التي بقيت شوكة في حلق الامير عبد الله طيلة ايام حكمه ، وكانت ثورة المولدين في الواقع أخطر وأشد رسوخا، وأبعد أثرا من مثيلاتها من الوقائع.

لم يفوت الامير عبد الله الفرصة على هذا المتمرد العنيد، " وكان يرى ان الثورة في الجنوب هي أخطر ما يواجه العرش، وأن ابن حفصون قد غدى قوة يخشى بأسها، وأنه يجب ان تكرس الجهود لتحطيم ثورته وسحق قواه" .ظلت المشادّات بين قوات الامبير والثائر ابن حفصون على اشدّها، بين الملاحقة والكر والفر، والتمنع في الجهات الصعبة التي كان كثيرا ما يلجأاليها ابن حفصون عند شعوره بالخطر ، ظلت الامور على هذه الحال الى ان كانت الى ان كانت موقعة بلاي على نهر الفوشكة أحد فروع الوادي الكبير، اين الحق جيش الاندلس الهزيمة بابن حفصون انسحب بفلول قواته الى حصن بلاي وتخلى عنه معظم أفراد جيشه بعد ؟أن يئسوا من مقارعة جيش الامارة الذي فاقهم عتادا وتنظيما، ودخل الامير حصن بلاي بعد ان استولى على جميع محتويات

جيش ابن حفصون، وكانت هذه المعركة ايذانا بتشتت جيش الثوار وتراجعهم في شتى المواقع، حين اصيبوا اصابة بالغة.

الأندلس على عهد عبد الرحمان ناصر

مدة نصف قرن ونيف ، والدولة الأموية تزحف نحو الأفول ، وسحب الظلام الكثيف قد حجبت آفاق المستقبل السياسي، في هذه الظروف المدلهمة بخطوب الحرب الأهلية ، والاغتيالات في دهاليز قصور الأسرة الحاكمة .

برزت شخصية مميزة عاشت في قلب الأزمات ، واكتوت بنارها لترشح لإنقاذ الأندلس وانتشالها من براثين التمزيق والانفلات.

فوضع يده على ممكن دائها ، وسار على نهج جده الأعلى عبد الرحمان الداخل ، الذي وضع اللبنة الأولى للسيادة الأموية في تلك الربوع ، والذّي أشاد صرحا كان منهارا ، ولملم أطراف دولة كانت ممزقة وعليه فإنّ عبدالرحمان الناصر يعتبر بلا جدال المؤسس الثاني للدولة الأموية با الأندلس ، بل أعاد إليها وشاحا طالما تاقت إليه ما يقرب من قرنين من الزمن والذّي أصبح حكرا على بني العباس . ألا وهو لقب الخلافة هذا ، وتتمحور إشكالية الموضوع في الإجابة على التساؤلات التي تطرح نفسها بإلحاح ، وفي مقدمتها.

1- ماهي الدوافع الحقيقية التي ساقت الشاب إلى سدة الحكم.

2- ما هي الخطط السياسية والعسكرية التي إنتهجها العاهل الأموي في القضاء على الفتن الداخلية.

3- ماهي الظروف والأهداف وراء تحويل الإمارة إلى دار الخلافة.

4- كيف تسنى لهذا الخليفة تطبيق خطة سياسية وحربية في صد دولة الفاطميين التي فرضت سيطرة شبه كاملة على المغرب العربي.

عبد الرحمان وظروف توليه الحكم :

هو عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي وأمه أم ولد تسمى مزنة وكان عمره لما قتل أبوه عشرين يوما.

تولى مقاليد الحكم في اليوم الذّي توفي فيه جده الأمير عبد الله ، وذلك يوم الخميس غرة ربيع الأول.

وعن توليه منصب الامارة يقول صاحب العقد :

((فتولى الملك والأرض جمرة تحتدم ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق)) وكان الخلاف قد عم أقطار الأندلس ، وأستشرى في جيوبها ووهاذها ، فبرز أهل النفاق وأستولوا على كورها.

وجاء في خطبة المنذر بن سعيد :

((ناشدتكم يا معشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمّنها . والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ،ألم تكن البلاد خرابا فعمرها و ثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها فاذكروا ألاء الله عليكم بخلافته))

وإنّ وضعا كهذا ، جعل الإمارة الأموية تمر بوضع صعب وخطير ، عجزت معه كل محاولة لردع الثائرين والمغرين الذّين وصلت تهديداتهم إلى أطراف العاصمة قرطبة ، بعد أن حدقت بها المخاطر من كل الجهات ، الأمر الذي أعطى التحديات الخارجية فرصة

المناورة لتحقيق ما كانت تنوي تنفيذه من توسيع أرجائها على حساب الأراضي الإسلامية والشروع في تطبيق سياسة الاسترداد.

فكان عبد الرحمان بن محمد هو أقرب الشخصيات لهذه المهمة وهو الشخص الذّي يقدر السلطة التي أصبحت بين يديه

وعندما بويع بالخلافة ، لم يعترض معترض ، بالرغم من بالحضرة جماعة أكابر وأعيان من أعمامه وأعمام أبيه .

سياسته الداخلية :

الحملات الأولى ضد الثائرين :

اقتضت سياسة عبد الرحمان الناصر الداخلية ، إتجاه الثائرين ، أن يعمد إلى استعمال الثورة وشن الحملات العسكرية على الثائرين وتوجيه أقصى الضربات الموجعة واستئصال شأفتهم.

لقد رفع كثير من الثائرين ، من البربر والمولدين راية العصيان والتمرد ، وجهروا بها في كثير من المدن ، مثل جيانالتي إستقل بها موسى بن ذي النون وببشتر معقل أسرة إبنحفصون المولدة ، وأشبيلية مقر حكومة بني الحجاج ، وبطليوس التي تحصن فيها عبد الرحمان بن مروان الجليقي ، وباجة معقله عبد الرحمان بن سعيد بن مالك.

كانت أخطر المشاكل التي أقضت مضاجع الأمويين ، هي مشكلة إبنحفصون إعتبرها عبد الرحمان الناصر أم المشاكل الداخلية فتصدى لها بذكاء ، تجلى في محاولة عزله وتجريده من حلفاءه ، فهاجم هؤلاء في معاقلهم.

ففي شعبان سنة 300هـ / 913 م خرج للغزو وتولى القيادة بنفسه.

ولعل ظهور الأمير عبد الرحمان في مقدمة صفوف بثّ في جيشه الحماسة وروح الإندفاع فتوجه عبد الرحمان الناصر نحو الجنوب الشرقي نحو كورة البيرة فافتحها ، وتداعت حصون تاجلة ، وبسطة ، ومربيط ، والبراجلة ، وضبط هذه المعاقل بإحكام

وكانت أول غزوة غزاها ثم إتجه جنوب كورة جيان وسط الأندلس التي إحتدمت فيها الثورة ، حيث كان إبنحفصون أخطر زعماء الخوارج الذّين شقوا عصا الطاعة على الأسرة الحاكمة من الأمويين ، ببسط سلطانه على طائفة من الحصون المنيعة ، وفي هذه الأثناء سير عبد الرحمان بعضا من قواته إلى مالقة لإنجادهافا ستولى عليها وأمنها.

وهو حصن شبليس في وادي آشوتسلل عمر بن حفصون هاربا بإتجاه قلعة ببشتر وقد ذهل من هذا الانتشار الأموي الأسرع.

وتفاديا لإجهاد الجيش ، يمم الناصر نحو قرطبة التي وصلها في عيد الأضحى بعد أن قضى ثلاثة أشهر ، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون ما يقرب من سبعين حصنا من أمهات المعاقل.

إعلانه الخلافة :

امتدّ حكم عبد الرحمان الناصر على مدة نصف قرن من الزمن 300هـ/ 350هـ وبذلك تعد أطول ملوك الإسلام قبله مدة وزمانا ، سوى أحد ملوك الدولة العبيدية ، وهو المنتصر بالله أبا تميم علي الظاهر بن الحكم الذّي بلغت ولايته ستين سنة وأشهر.

وانقسم عهده إلى مرحلتين ، السنوات الستة عشر (16) التي تتوج بها عهد الإمارة ، وما بقي من عهده يمثل العهد الجديد وعهد الخلافة في أواخر سنة 316 هـ أوائل 929 م أقدم عبد الرحمان الناصر على أخطر قرار توجس منه أسلافه.

وعلى الرغم من أنّ مملكتهم استطاعت أن تبلغ شأوا بعيدا من القوة والأتساع ، فإن أمراءها لم يجرؤا على الإقدام في منافسة الدولة العباسية في ألقاب الخلافة لأنهم كانوا يرون أنّ الخلافة لمن بيده مقاليد الحرمين ، وهي تراث لأهل البيت الذّي يرى آل العباس أحد فروعهم ، ولكن التطورات التي حصلت في العالم الإسلامي وخاصة في القرن الرابع الهجري جعلت عبد الرحمان الناصر يقدم على هذا القرار.

حيث نفذ ذلك بأمر أصدره في ذي الحجة سنة 316هـ / 929 م

وأمر بأن تكون الدعوة في مخاطبته ، والدعاء له على المنابر ، بأمير المؤمنين لما إستحقه من هذا الإسم الذّي هو له بالحقيقة ولغيره با الانتحال والاستعارة وأصدر قرارا إلى عماله في جميع الأقاليم وعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة 316هـ وهو تلقيب نفسه بلقبين الأول ، لقب الخليفة ، والثاني لقب أمير المؤمنين وأضاف إلى لقب الشرفي الناصر لدين الله.

وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين ببلاد الأندلس وكانوا من قبله يسمون ببني الخلائف

وعليه فإنّ عبد الرحمان الناصر ، يكون بهذا العمل قد أقدم على أمر خطير ، كما أسلفنا وشذ عن القاعدة وعن الأصل النظري للمذهب السني للخلافة ، الذي يعتبر الخلافة كمؤسسة دينية ودنيوية ، لا يجوز أن تتجزأ ، ولكن حدت به جسارته إلى وضع هذه المسألة موضع الاجتهاد.

أجاز فقهاء السنة بتعدد الخلافة في حال وجود مصلحة عامة للمسلمين وأقروا بمشروعية وجود إمامين يتوليان حكم المسلمين في وقت واحد شرط أن تكون المسافة بعيدة حتى لايحدث التصادم بينهما.

وإقناعا للرأي العام استند عبد الرحمان الناصر بذكائه وعبقريته إلى الخصوصية التي تستند إليها الخلافة العباسية التي تقوم على أساس التفويض الإلهي ، أمّا النظرية الفاطمية الشيعية في الحكم فتستند إلى عصمة الإمام ، أمّا الخليفة الأموي فهو إنسان عادي قد يخطئ وقد يصيب وهو معرض للنقد من قبل العامة

لكن نظام الخلافة الأموية في الأندلس هو نظام ملك يقوم على التوريث ، ويستند على السياسة ثمّ إلى الدين ، فهو بذلك يختلف عن الخلافة الراشدة القائمة أساسا على الشورى والانتخاب.

وكان عبد الرحمان نفسه خليفة وأميرا للمؤمنين في منشور رسمي صدر في ذي الحجة 316 هـ ، أوائل يناير سنة 929 وخطب له في المنابر ، وأمتد بذلك عصر الخلافة قرنا كاملا حتى 422 هـ/ 1031

سياسته الخارجية :

*** المد الفاطمي في المغرب الأقصى والنزاع مع الفاطميين :**

وقع النفور الشديد في أول الأمر بين الفاطميين والأندلسيين ، وتوجس كل منهما خيفة من الآخر ، وتميزت العلاقة بينهما بالشك والحذر والحيطة . ولما كانت الدولتان على عداء في البر ، كنتا في البحر أيضا.

م يتوقف الامتداد الفاطمي في الشمال الشرقي لإفريقيا بعد الإستلاء على القيروان والقضاء على الدولة الأغلبية فحسب ، بل اعتبر الجزء الغربي أو المغرب مجالا حيويا ورقعة انطلاق للوثوب على الأندلس فعمدوا إلى تسرب الدعاة بهدف نشر المذهب الشيعي وجذب المسلمين إلى الدعوة الفاطمية ليحققوا بذلك ظاهرة التكامل المذهبي والسياسي ربين شطري العدوة المغربية والأندلسية.

ورغم الجهود التي بذلها الفاطميون في محاولة إخضاع المغرب لسيطرتهم إلاّ أنّهم تلقوا مجابهة عنيدة . وذلك لدخول موسى بن مكناس زعيم الأدارسةفي مدينة فاس ومحمد بن خزر الزناتي في طاعة عبد الرحمان الناصر.

ورغم إنشغال عبد الرحمان الناصر في محاولة إرساء دعائم الجبهة الداخلية والعمل على تماسكها ، لم يغفل عن الخطر الفاطمي الذّين بسطوا دعوتهم في المغرب

بل كان يتتبع في تيقظ جميع حركاتهم مذهبيا وعسكريا فاضطر إلى المجابهة بساسية حازمة هذا الخطرإنطلاقا من الإستراتجية التالية :

- تلقب بألقاب الخلافة عام 317هـ/ 924م وتوسيع هيبة الحكومة الأموية في العدوتين.
- تأجج نار الفتنة بين القبائل البربرية ، وإحتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق كمدينة مليلية التي احتلها سنة 314 هـ/ 927 م ومدينتي سبتة وطنجة سنة 319 هـ / 993 م التي عزم على جعلها قاعدة إنطلاقه للسيطرة على بلاد المغرب الأقصى ومحاولته إحتلال موقع هام قرب مدينة تلمسان وهي مدينة أرشقول وتسمى حاليا Rachgoun ولم يلبث أمراء القبائل في المغرب أن طلبوا دعمه بعد أن آنسوا فيه القدرة على المجابهة وتقديم الدعموأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة.

يقول صاحب كتاب مفاخر البربر :

((...وتخطاهم عبد الرحمان إلى من خلفهم من زعماء قبائل البربر يستألفهم ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ، مسدا لمن عجز برجاله ، مقويا لمن ضعف بماله متفقدا لهم في سائر

الحالات بألطافه ، متعهدا بوجوه رسله وخواصه إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه وأرتسموا بطاعته ، ولاسيما عند اجتياز " إمتيان " أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله)).

كما إهتم بتقوية البحرية الأندلسية ، وتكوين أسطول أندلسي ضخم يجابه به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط ، ويذكر إبن خلدون ((أنّ أسطول عبد الرحمان الناصر انتهى في أيامه إلى نحو مائيمركب)).

ومن هنا يعتبر عبد الرحمان الناصر واضع الأسس الأولى للصناعة البحرية ، بحكم موقع شبه الجزيرة المحاطة بالمياه حيث هي تطل على واجهة بحرية واسعة على المحيط الأطلسي ، وعلى حوض البحر المتوسط لذلك نشطت حركة الإنشاء ، وصناعة السفن إلى حد إنشاء عددا كبيرا من حيث تحالف سنة 344 هـ مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن دور الصناعة في مدن الأندلس ، مثل : المرية ، وطرطوشة والجزيرة الخضراء ومالقة وغيرها.

يقول إبن حيان : ((...وفيها أغزى الناصر لدين الله الأسطول إلى أرض العدوة في أتم عدد وعدة وأكمل عتاد وآلة ، وكان أفخم أسطول أجراه ملك ، وقر عليه نظره ووكل به عزمه ، وتكاملت قطعة وتواترت عدده وتكاثفت ركابه وعلا ذكره عند أهل العدوة ورعبوا له...)).

ولم تتوقف سياسة الناصر عند هذا الحد ، بل راح يوسع دائرة التطويق لمحاصرة الفاطميين بالتحالف مع ملوك أوربا والشرق .

الذّي كان ببروفانس الذّي كان يرغب في استرجاع صقلية من أيدي الفاطميينوملك إيطاليا هو جوذيبروفانس الذّي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة وللإشارة فإنّ المصادر الإسماعلية تؤكد التعاون الفعلي.

وهذا ما يؤكده القاضي النعمان بقوله : ((وكتب الناصر إلى طاغية الروم يسأله النصرة ، وأهدى إليه هدايا ، وأرسل إليه رسلا من قبلفأجابه إلى ذلك وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ، ومراكب بني أمية من الأندلس

وعلى العكس تماما من المصادر الأندلسية التي تفصل في تلك المعاهدات المبرمة

المواجهة بين الفاطميين والأمويين :

لم تبق الحرب بين الفاطميين والأمويين مجرد حرب كلامية ، والاستعدادات وتهديدات فقط بل تحولت إلى مواجهات مسلحة ففي سنة 344هـ/ 955 م هاجمت بعض سفن الفاطميين ثغر المرية وأحرقت ما فيه من مراكب.

يقول القاضي النعمان :

" غزا المعز بني أمية با الأندلس فأحرق أساطيلهم ودار صناعة مراكبهم وأحتوى على المرية وما فيها بعد قليل المراكب أخرجها لأمر تعدوا فيه وجاروا في البحر إلى المشرق من غير أمره"

فرد الناصر بإرسال قوة بحرية إلى شواطئ إفريقيا مثل سوسةوطبرقة ومرسى الخزروأنزل بها الخراب ، وأضرم النار في بعض نواحيها

وفي هذه الأثناء والحرب مشتعلة أمر الناصر بلعن الخليفة الفاطمي من على المنابر ببلاد الأندلس.

وهكذا ظلت الحروب سجالا بين الأمويين والفاطميين في الوقت الذّي كان الأمويين يعملون على إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق جواسيسهم وجاليتهم الأندلسية المنتشرة على الساحل الغربي

وعندما أيقن الفاطميون أنّ المواجهة مع الأمويين في الأندلس ، أصبحت ضربا من العبث وأنّ أرض الأندلس لا تصلح لبذر الدعوة الفاطمية.

كما أيقنوا أنّ بقاءهم بالمغرب قد يعجل با الإطاحة بكيان دولتهم فولوا وجوههم شطر مصر أين نجحوا في بعث الخلافة الفاطمية على أنقاض دولة الأخشديين، ونقلوا عاصمتهم من المهدية إلى القاهرة.

المنشآت العمرانية في عهد عبد الرحمان الناصر :

تشهد آثار الناصر الباقية بقرطبة ، وآثار مساجدها وقصورها ، المتهالكة بمدينة الزهراء ، بما بلغته الحضارة العربية الإسلامية ، وسؤددها وازدهارها حيث يعبر عبد الرحمان الناصر عن ذلك أصدق تعبير :

همم الملوك إذا أرادوا ذكـــــرها | من بعدهم فبألســـن البنيـــان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا ، وكم | ملك محـــــاه حوادث الأزمان؟
إنّ البناء إذا تعظـــــــم قدره | أضحى يدل على عظيم الشان

شهدت الحركة العمرانية في عهد عبد الرحمان الناصر بأبعاد وإنعكاساتها مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي والعالمي ، حيث أصبحت مدينة قرطبة الفتية تضاهي العواصم العربية العتيقة (بغداد ، القاهرة ، ودمشق) وغدت تستقطب آلاف من البشر وهو من ذوي الحاجات الثقافية والعلمية ، وأزدحمت بآلاف المنازل المتقنة البناء والقصور وعشرات الفنادق والحماماتيقول إبن عذاري : " إنّ الناصر قد أسس الأسوس وغرس الغروس ، وأتخذ المصانع قصور"

وفي بداية 329 هـ / 940 م أكمل الناصر بناء القناة الغربية الصنعة التي يجري منها الماء العذب من عيون جبال قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة ، ويجري ماؤها بشكل عجيب إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة مطلى بالذهب وعيناه جوهرتان لهما تلألؤا شديدا

ومن الآثار المنضوية ، التي احتفظت بها أمهات الكتب ، وسجلتها أقلام وأطنبت في ذكرها ، وجعلتها مرادفة لمآثر الناصر ، وهي مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمان ، إستجابة لطلب جارية " الزهراء " هام عبد الرحمان بحبها ، يذكر ذلك المقري في النفح الطي

الاندلس على عهد الحكم المستنصر 350هـ 366هـ /961 976 م

تولى الحكم المستنصر الخلافة بعد وفاة والده عبد الرحمان الناصر سنة 350هـ/961م، وبقي متمسكا بأهداب سياسته، ولم يشذ عن القاعدة التي ورثها عنه، وحاجة في صدر دولته حيث يورد ابن حيان نصا يبرز فيه التزام المستنصر سياسة والده قائلا«وأنهى خلفه الحكم في امتثال ذلك صدر دولته، وشديدا باستعماله وربط قلب على ابرامه وأصبح أبين اعتقادا فيه، وأشد ذيادا

لغلمانه وأحشامه وأجناده عن التشبه بالبرابرة، والتشكل بشكلهم والاستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم»وهناك من ذهب إلى أبعد من هذا ، في وصف إمتثال المستنصر لسياسة ابيه ، إتباعها شبرا بشبر، وذراعا بذراع وهو ما أورده المقري التلمساني قوله {فجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه }يدل النص أعلاه، دلالة واضحة على التصميم وعقد العزم بل والتشديد على إلزام غلمانه وأحشامه على تجنب التشبه بالبرابرة في أبسط الامور .

ولما أراد الحكم المستنصر أن يحول هذا النهي من حيزه النظري إلى حيزه الفعلي،كان أن حدث ذات مرة وهو سائر بموكبه نحو الزهراء، فوقعت عينه على غلام له يركب فرسا بسرج عدوي الصنعة، فامتعض الحكم وغضب غضبا شديدا، حتى أنه التفت إلى صاحبه جعفر الصقلبي منكرا عليه غفلته على هذا الفعل، وأمره بإحراق السرج واشتد العجب من هذا النكير وهاب من حضر الواقعة، واستحسنها أغلبهم. قد يكون هذا الالتزام على الصعيد الداخلي فقط لتأمين الجبهة الداخلية من كل طارئ محتمل، أما على الصعيد الخارجي فقد جنح الحكم إلى اكتساح الساحة المغربية دون مراعاة الجهود التي يتطلبها هذا الغزو، وقد أنفق في ذلك أمولا ضخمة أوردها ابن حيان في هذا النص قائلا «فقاد خيول الأندلس إليهم، وربط أكابر قواده على ممارسيهم وتحويل المستمالين من أهل بلدهم عليهم، حتى قهرهم واستنزلهم عن صياصيهم». أما والده فقد تحلى بنظرة واقعية، حيث اكتفى بالاستلاء على المدن الواقعة في الضفة الجنوبية سبتة، وطنجة، ومليلية، وجعلها قواعد تحمي سواحله الجنوبية، وحتى يكسب مزيدا من التأيد، فقد كان يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ويستقبل من يفدمنهم على الأندلس بحفاوة وتجله، ويجند في جيشه المرتزقة من أهل المغرب الذين كانوا يفيدون عليه بأعداد كبيرة.وقد نجح الناصر إلى حد كبير في هذه السياسة التي جعلت الفاطميين ومن بعدهم بني زيري الصنهاجيين يصطدمون بهذا الجدار العازل. وعلى أية حال فإن الحكم المستنصر قد عدل عن سياسة الإعراض والنفور من العناصر البربرية وكان لذلك دوافع وأسباب يذكرهاإبن حيان مفصلة أثناء الحروب التي دارت رحاها مع بني محمد الحسنين المنتزين عليه بأرض العدوة المحاربين لعمله هناك.

إلا أن هذا التراجع والميل إلى البربر، يعود في نظري إلى العناصر البربرية المتواجدة في الاندلس والتي تقلدت مناصب عسكرية وإدارية، قبل الاصطدام بإخوانهم في العدوة الجنوبية، لقد كانت شخصية عثمان بن نصر المؤدبأقرب الشخصيات إلى الحكم المستنصر باعتباره مربيه ومؤدبه فلا ضير أن يكون لهذه الشخصيات تأثير في هذا التحول. وما إن اعتلى الحكم عرش أسلافه حتى قام بتعيين جعفر بن عثمان المصحفي. لقد كان لهذه الشخصية حضور قوي في الجهاز الاداري في عهد عبد الرحمان الناصر الذي ولاه على كورة البيرة،وألمرية، ثم عزله عن البيرة التي تولاها القائد محمد بن روماحس، واكتفى بتولية جعفر على البيرة فقط وفي سنة 333هـ/ 944م ولاه عبد الرحمان الناصر قائدا على الجزائر الشرقية، ولم يتردد الحكم في اتخاذه كاتبا ووزيرا ثم منحه منصب الحجابة وهو اعلى منصب يطمح إليه رجال الدولة.

وظل جعفر بن عثمان المصحفي في منصب الحجابة، إلى وفاة الحكم المستنصر 366هـ وقام من بعده ولده هشام الذي اختلفت الرعية عليه، واضطرب شمل الخلافة لحداثة سنه، فقام بأعباء الحماية المنصور بن أبي عامر ومني جعفر بمنافس عنيد كانت نهايته على يديه كما سأبين ذلك لاحقا.

إلا أن اهم عامل جعل الحكم يهفو نحو فئة البربر ويحيطها بعطفه، هو ذلك الانتصار الذي ناله أبو علي جعفر بن علي الأندلسي ،ويحي أخوه على قوات زيري بن مناد الصنهاجي، عندما التقى الفريقان في معركة ضارية تحدثت بها الركبان في رمضان 360هـ/ 970م، عند وادي الملوية على مشارف المغرب الأقصى.

ومما قاله صاحب مفاخر البربر عن هذه الواقعة «فاشتد القتال بين الفريقين وزيري في صدر خيله يحرضها بفضل نخوته، وشدة جرأته إلى أن عقر به فرسه وجدت زناتة في القبض عليه وصنهاجة في

استنفاذه ودارت رحى الحرب ساعة قتل فيها من أنجاد الطائفتين جماعة إلى أن ظهرت عليه زناتة وهو عقير فحتزت رأسه »وقتل في هذه المعركة معظم رجال زيري الصريع، وتم الاستلاء على معسكره.

لقد كانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع التي شهدتها بلاد المغرب يومئذ لما شهده من هول ووطيس، وتدحرجت فيها رأس زيري بن مناد يقول بن حيان واصفا هولها «وكانت هذه الوقيعة من أعظم الوقائع وأبعدها صيتا وأشنعها ذكرا،إحتوىالزناتيون بها عسكر زيري وأثخنوا القتل فيجموعه وأدركوا آثارهم المنيم منه».

وعقب هذه الحادثة كتب جعفر بن علي الخليفة الأموي، معلنا ولاءه ومخلعا لدعوة الشعيين ويطلب منه الإذن بالدخول إلى الأندلس، فكان له ما أراد ودخل قرطبة مع بني خزر يحملون رأس زيري بن مناد،ورؤوس كبار رجاله وسرّ الحكم بقدوم الوافدين عليه وخصهم باستقبال كبيردعى له كبار الشخصيات والأعيان واكرم نزلهم بان أرسل إليهم الخيول والبغال والهوادج والملابس وهو ما جاء في كتاب البيان المغرب قوله «وفي القعدة منها خاطب المستنصر بالله قواده وعماله بكورة الأندلس في استقدام كبارها وأعلام رجالها لمشاهدة دخول يحي بن علي بن حمدون، وبني خزر امراء زناتة القادمين برأس زيري بن مناد الصنهاجي قائد معد بن اسماعيل الشيعي ورؤوس أعيان أصحاب».

وفي غمرة هذا الاحتفال انبرى الشعراء بذكر فراق جعفر وأخيه يحي لسلطنهما بالمغرب وقدومها على الخليفة المستنصر ومما قاله يوسف بن هارون ينبهه بحقيقة هؤلاء البربر وان يرفع ثقته بهم.

ولقد عجبت لغفلة المستنصر إذا أكتنف الجيش للهام لجعفر

ولو أن من أهوائه ابرز وجهه قامت لواحظه مقام العسكر

ظل الحكم متحفظا إزاء الاعتماد على البربر بالرغم ما قام الزناتيون ببتر ذراع الفاطميين في بلاد المغرب، إلى أن كانت المواجهة مع بني محمد الحسنين الذين تخلو عن دعوة المروانية وانضووا تحت لواء جيش بلقين بن زيري الصنهاجي، وذلك حين اعلن عن حركته الشهيرة لاستئصا لشأفة الزناتيين ومن حالفهم. وكان الحسن بن قنون اول من سارع إلى بيعة الشيعة، ونصرة بلقين بن زيري في مقاتلة أولياء المروانية وقطع دعوتهم من بلاد المغرب.

لم ينتظر الحكم المستنصر طويلا لمعالجة الموقف، قبل أن تلتحم قوات الحسن بن قنون مع قوات بلقين، وتتمكن من اختراق الجدار العازل الذي أنفق والده الناصر جهودا مضنية في اقامته وليس هذا فحسب بل رأى الخطر الفاطمي بالنسبة للمروانيين لا زال قائما فهو إن زالت قيادته، فقد بقي شيعتهم الذين ينوبون عنهم في بلاد المغرب، ولذلك انبرى الحكم المستنصر للمواجهة المباشرة وسارع إلى تعبئة الجيوش والأساطيل ومنح قيادة الجيش للقائد المحنك محمد بن القاسم بن طملسوأوصاه بالآداب التييمكن أن يسلكها أثناء الحرب وأن يؤثر العفو والصفح عند المقدرة وأن يجند على الفور من دخل في طاعته من البربر في صفوف جيشه، وفي الحادي عشر من شهر شوال 361هـ/ 971م تلاحقت الجيوش المبحرة إلى مدينة سبتة التي عدت قاعدت إنطلاق للجيش الأندلسي ومنها إلى مدينة تطوان.

فافاها خالية ثم يمم نحو طنجة لمؤازرة عبد الرحمان بن رماحس الذي وقف على مشارفها ودعي أهلها إلى الطاعة، إلا أنهم أساؤوا الرد عليه وامتنعوا، وكان الحسن بن قنون يحرضهم ويشد عزائمهم على الثبات،إلا أنه لم يستطع مقاومة الحصار وفضل الهجوم بدل المكوث داخل المدينة، وبعد الالتحام مع جيش الحكم أيقن بالهزيمة، وولى مدبرا ولاذ بالفرار في ثلة من أصحابه تاركا وراءه ما خف أو ثقل من الأموال والأخبية، يصف ابن حيان بعض من هذا المشهد القتالي قائلا«وتأمل ذلك حسن مغويهم، فاعتزلهم وفر هاربا في خاصة من أحبابه لا يلوي على أحد، ولم يعرج على ما كان له ولهم بالمدينة من أموالهم وأمتعتهم، وما كانوا قد عدوه فيها من أخوادهم وذخائرهم».

فلما يئس أهل طنجة من عودة قائدهم، خرج شيخهم ابن الفاضل مع اعيان المدينة، يتقدمهم ابن رماحس وهم يرددون الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم ثم طلب الشيخ الامان لأهل بلده فكان له ما اراد، وأوفد ابن رماحس كتابا إلى الحكم يزف إليه الانتصار مع صاحب البريد، فحلول بن هذيل ومسعود بن محمد، فسر الحكم لهذا الانتصار وكافأهم بمائة دينار لكل واحد منهم وخلع عليهما خلوعا طرازيه.

لقد نجح الحسن بن قنون في تأمين خط الرجعة والوصول إلى قاعدة إرتكازه في فحص مهران أين أمكنه اعادة تنظيم قواته واستجماعها. وفي يوم من أيام شهر ربيع الأول من سنة 362هـ/972 م التقى الجمعان ودارت بينهما حرب عظيمة انتهت بانتصار ابن قنون على قوات محمد بن القاسم، بسبب أتعاب الملاحقة والإجهاد. وقتل محمد بن القاسمبن طملس في جملة من أصحابه الفرسان ناهزوا الخمسمائة، ومن رجالاتهم نحو الالف. وفجع الحكم المستنصر بنبأ مقتل قائده ابن طملس، مما زاد في اصراره على مواجهة البربر واخضاعهم بالقوة، ومن ثم استمالتهم إلى صفوف جيشه معترفا ببسالتهم وحسن بلائهم في الحروب، فهو بالرغم من بغضه لهم إلا أنه أراد أن يقوى بهم على خصومه في مختلف الجبهات، وخاصة العدوة المغربية التي كانت تعج بالمناوئين أتباع الفواطم، وقد ألمع ابن حيان هذا الميل والاغتصاص الذي تجرعه الخليفة الأموي الحكم المستنصر بقوله" ووافته على ذلك شارة رجال هؤلاء الحسنين من غلمانهم وصنائعهم المرغمين لهم وله بإذعانهم لإذعانهم للذي سبق لهم لديه من الإغتصاص بمرارتهم والإعتراف ببأسهم فاستضم جميعهم عنهم وألحقهم بجنده ونعشهم بعطائه وبوأهم بداره".

وعلى أية حال فإن الحكم المستنصر دفعهم بكل حزم على محو آثار هذه الهزيمة، واسترداد كرامة قواته ونفوذه في بلاد المغرب.فقام على عجل لا يلوي على رأي، وخاصة عندما استغاثه الجند الذين فروا إلى مدينة، سبتة وتحصنوا باستدعاء غالب بن عبد الرحمان مولاه صاحب الثغر من مدينة سالم.

وكان غالب هذا على غاية الحزم والنجدة والشهامة والدهاء والإقدام،فوافاه بقرطبة في ثلة من القادة والرؤساء والأجناد، وضم إليه جيشا عرمرما وأمده بأموال معتبرة وعدة ومؤن وأوصاه عند توديعه وصيته الخالدة " سر سير من لا إذن له في الرجوع إلا حيا منصورا أو ميتا معذورا، وابسط يدك في الانفاق، فإن أردت نظمت الطريق بيننا قطار مال".

وفي مدلول هذه الوصية التي اسمعها الحكم لقائده غالب، هي أن يعمل السيف في المعاندين، ومن ركبوا رؤوسهم في مواجهة المروانيين من ناحية، وأن يبسط يده بالعون والإحسان لمن لم يشهروا سيوفهم في وجهه من القبائل البربرية. وعليه فإن الوصية لم تكن مجرد خطاب لرفع معنويات القائد فحسب بل اتبعها بتدعيمات مادية وبشرية أرهقت خزينة الدولة يومئذ عدها بالتفصيل في هذا النص قائلا :" وقرب بها من فاخر الكسوة، الديباج والخز والمطارف والسيوف المحلاة عددا للخلع عليهم محددا ذلك من الديباج المضطلع الملون أيضا خمسون جبة، ومن المطارف المفصلة الملونة مائدة جبة، ومن العمائم اللاسية الملونة مائة عمامة، ومن السيوف العدوية الحالية والشطر منها محرمة عشرة سيوف".

أبحر غالب في اليوم المحدد يريد طنجة وفي الوقت نفسه تحرك القائد عبد الرحمان بن رحماس بأسطوله نحو مدينة أصيلاكي يبقى قريبا من أسطولالقائد غالبوقد بارك الخليفة الحكم هذه الخطة وعدها من حسن التدبير، وأن الركض بهذه الطريقة يؤدي إلى الاتجاه الصحيح.

– لم يتوقف الحكم عند هذا الحد من الدعم، بل أرسل في مدائن وقرى العدوة، الشعراء والقضاة، والأمناء ليبثوا في أوساط البربر الدعوة لولاء المروانيين، ومثال ذلك الشاعر محمود بن حسنين التميمي المعروف بالطبيني، ومن رجالاته ذوي الحنكة والدهاء قاضي اشبيلية وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر الذي لقب فيما بعد بالمنصور، فقد عينه الحكم على قضاء العدوة المغربية فأظهر براعة وحسن تدبير، وعلى صيته وحمدت آثره. وبهذه الخطة والحشد الغفير أطبق الحصار على ابن قنون في مكمنه بحجر النسر، وبدا له أن المواجهة ضرب من المخاطرة، وفضل

الاستسلام وطلب الأمان فكان ذلك ودخل غالب الحصن وصلى في المسجد الكائن به ودعى للخليفة المستنصر.

توجه غالب نحو الأندلس بصحبة قنون في نفر من شيعته بنو ادريس الحسينيون ملوك المغرب وكان دخوله الأندلس يوما مشهودا لما ظهر فيه من فخامة الملك واحتشاد الجموع

ولقد وفى الحكم للحسن بن قنون بالعفو والتكرمة وأوسع له ولقومه في العطاء وأسكن الحسن بجواره، وظل يغدق عليه إلى أن ساءت العلاقة بينهما بسبب قطعة عنبر. والحكم وإن احتمل للحسن بن قنون أشياء منكرة وفاء بذمته. كان يبغي مساءته ويبيح هجوه، وقد انشده شاعره محمد بن شخيص لتهنئته يوم العيد بقصيدة طويلة هجن فيها الحسن وقومه فقال:

عصابة تدعي في هشام نسبا وما يصح في هشام نسبا

وزاد عماها أن أقرّ لها ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب

إذا غدا حسن فيالآلمن حسن رأسا فيا ليت شعري أيما الذنب

ويورد ابن الخطيببشئ من التفصيل في هذا النص قائلا:" وكان دخول العلويين صحبة غالب إلى قرطبة أول المحرم مفتتح سنة أربع وستين وثلاثمائة وعفا عنهم الحكم ووفى للحسن بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء، وكانوا سبعمائة من الشجعان واستمر سكناه في جوار الحكم وتحت بره إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة، ثم ساء ما بين الحسن بن قنون وبين الحكم بسبب قطعة عنبر".

وتجدر الاشارة هنا إلى حرص الحكم المستنصر على استقدام العناصر البربرية لما أبلوه من بلاء في هذه الحروب، بالرغم ما أشجوه في قادته المقربين الذين حموا الثغور، وهذا ما أشار إليه صاحب المفاخر بقوله:" .... فذلك ما حمل الحكم على اعتمادهم بالصنيعة واتخاذهم للدولة، وهذا كان السبب في توافر هذه الطائفة بالأندلس"

لقد بلغ عدد الوافدين على الحكم سبعمائة رجل من عليّة البربر يعدلون سبعة ألاف من غيرهم وفي مقدمتهم محمد بن فرجولة، وحسين الخليع، وأحمد بن رجاء بن مقاتل، وسليمان

النقرات وأبو شفة بن ميمون، وخلف الله بن مزكيدة، وفتحون بن عساكر، وخلوف الشرقي ومطروح بن مساوش.

ما من شك أن الحكم المستنصر ظل تحت ضغط حاشيته التي اوغلت صدره على الحسن بن قنون ورفاقه، وخاصة بعد تجرئه على الخليفة ، بالإضافة إلى وطأة النفقات.

ومن ثم لم يجد بدا من التخلص من هذا المشاكس العنيد، الذي تطاول عليه، فأمر بإجلائهمبعد أن أخذ منهم عهدا ألاّ يدخلوا بلاد المغرب. فمن ألمرية أبحر ابن قنون نحو مصر، أين استقبلهم نزار بن معد، فأكرم نزلهم وأقاموا عنده مدة طويلة وفي سنة 373هـ/983م متهم على العدوة إلى بلاد المغرب وأيده بعامله على المغرب بلقين بن زيري، وانضمت إلى قبائل البربر وشرع في بث دعوته.

فأزعج ذلك المنصور، فبعث إليه قواته التي أجبرته على الاستسلام والتوجه ثانية إلى الأندلس، فكان له ذلك، ولما بلغ المنصور ابحاره تنكر له، وبعث من قتله وحزّ رأسه وأوصله إليه كان ذلك سنة 375هـ/985م.ومن الاهمية بمكان ان نشير إلى أن سياسة الحكم في جلب العناصر البربرية لم تكن بالأمر الهين فهو كان يستدرج العناصر البربرية الكفأة من رحم الخطوب والملاحم، ويجبرها على التوجه نحو الأندلس ليطعم بها جيشه، ضاربا الذكر صفحا عن مختلف انتماءاتهم العقائدية يقول ابن حيان"فتقبلهم معرضا عن نحلتهم على بصيرة مسمحة، واكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاث البربرية الرجال، رجال بني حسن ورجال ابني الأندلسي ورجال البرازلة عسكر ضخم يقاربون السبعمائة فارس منهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر والرئاسة جميعهم من البربر الذين طال مقت السلطان لهم وزهدهم فيهم".

ومما هو أجدر بالملاحظة والذكر فإن الحكم المستنصر الذي ظل يمقت البربر ويزهد فيهم ويأبى الالتفات لهم أو ذكرهم، تحول فجأة إلى الاهتمام بهم والتعويل عليهم وخاصة عندما بلغه حسن بلائهم واستبسالهم في الحروب، وطريقة قتالهم في الحروب وركوب جيادهم وتشنجهم فوقها، وهذا ما لم يكن في جيش الاندلس الذي أخذت تتلاشى عنده مثل هذه الفنون الحربية وقد أشار إلى

ذلك ابن حيان قائلا" فمنحهم الله قبوله وحسن عنده زيهم واستنبل تخفيفهم في مراكبهم وانكماشهم في ثقلهم، ورأى ان أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم".

لقد أدرك الحكم بعد الصراع المرير الذي خاضه ضد بربر العدوة وما لاقاه منهم منشدّة واستماتة حتى كادت أن تنال من قواته لولا الدعم المادي والبشري الذي امد به قواته، ادرك عندئذ حسن تدبير والده الذي اعتمد على هذه العناصر وخاض بها حروبه ضد المناوئين له في شتى أنحاء الاندلس، واخمد به الفتن والاضطرابات التي كادت أن تطيح بالمروانيين في الأندلس.

لذلك حرص على تجديد قواته بهذه العناصر البربرية التي لا تحسن إلا القتال فكان الخزان البشري الاجدر بهذه المهمة هو خزان العدوة المغربية، التي كانت تعزز أبطال الحرب من رحم المواجهات سواء بين القوى المغربية نفسها او مع جيش الخلافة.

فظل الحكم محبورا يشيد بهذه الفئة ويعجب من حوله بهذا التحول لدى الحكم من المقت إلى الرضا، حكى ابن جيان أنه في أيام اعتلاله كان يمتع نظره بهم وهم يستعرضون أمامه شتى فنون القتال:"....حتى انه ظل أيام علته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام اعطائهم، يتطلع على فرسان البربر إذا تحركوا للعب، شاخصا إليهم معجب بهم يقول لمن حوله انظروا إلى انطياع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر"بقوله:

فكأنما ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم. ومع ذلك فقد تزامنت نهاية الحرب على الحسينيين والقضاء على حركتهم مع اعتلال الحكم المستنصر الذي أصيب بمرض الفالج، وركدت رياح المروانية بالعدوة إلى حين ، وانتقلت ادارة شؤون الخلافة إلى وزرائه وحاشيته ونسائه، فاضطربت شؤون الخلافة في الداخل،وتحركات الاسبان في الشمال وتكررت اعتداءاتهم على الثغور المجاورة لحدودهم.

مما حدى بالوزير جعفر بن عثمان المصحفي باستدعاء القائد يحي بن محمد التجيبي من المغرب ليسد به الثغور الشمالية، واستبداله بجعفر بن علي الأندلسي وأخيه يحي، وقد وقع عليهما

الاختيار لعدة اعتبارات، منها معرفتهما بشؤون العدوة وأهاليها وعداوتها التقليدية لبني زيري وحلفائهم الفاطميين، وحلّ بهذه الجهة سنة 365هـ 976م وبين أيديهما الألوية والطبول مؤيدين من قبل قبائل زناتة من مغراوة، وبني يفرن، وغيرها من القبائل وفي حفل بهيج سلم لهما القائد يحي بن محمد التجيبي مقاليد الأمور، وقفل عائدا إلى الأندلس، وعلى عجل وجهه الخليفة إلى سرقسطة.

وبهذه السياسة الرشيدة التي انتهجها الحكم المستنصر حيال البربر، وهي سياسة نابعة من الواقع الذي فرض عليه المهادنة معهم والاحسان إليهم تارة، ومجابهتهم والضغط عليهم تارة أخرى. كل ذلك من أجل أن يتحقق لديه بناء جدار عازل يسد به الاخطار التي قد تأتيه من هذه الجهات، وقد ذاق ويلاتها من قبل، وخاصة من بني زيري الذين اشهروا سيوفهم في وجه الزناتيين، لذلك رأى الحكم أن الآلة التي تكفيه شر المجابهة مع بني زيري ومن والاهم من القبائل، هي العناصر البربرية الزناتية لذلك سخر الحكم كل ما لديه من أجل القضاء على المناوئين له داخل المربع الزناتي الذي يعد بالنسبة له الخزان الأساسي الذي يلجأ إليه حالة الطوارئ والملمات، ومن هنا يختلف الحكم عن أبيه الناصر لدين الله في سياسته حيال افريقية، فقد كان الناصر يكتفي بالحد الذي يقف عنده في كل ميدان، وفيما يتصل بالمغرب، اكتفى بالاستلاء على سبتة، وطنجة، ومليلة، واعتبرها أجزاء من بلاده، وجعل منها قواعد تحمي سواحله الجنوبية، وعند طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التي كانت تناوئ الحكم الفاطمي، ويستقبل من كان يفد منهم على الاندلس، ويقابله بالتجلّة والتكريم والإنعام، ويضم إلى جيشه الجموع البربرية التي ترغب في التجنيد.

أما الحكم فقد أراد فتح المغرب الأقصى الشمالي وأنفق في ذلك جهدا مضنيا وأموالا ضخمة ،ولم يجن من وراء ذلك إلا إضعاف الثغور الشمالية.

عهد هشام بن الحكم وحجابة المنصور بن أبي عامر

ما ان أحسّ الحكم بدنو أجله جمع كل من يثق بهم من المقربين منه، وأخذ منهم العهود والمواثيق، للوقوف إلى جانب نجله الحدث والإخلاص له في تسير شؤون الدولة. مما يعني أن السلطان سيقع في يد من يقومون بالوصاية على هذا الفتى الصغير.لقد انقسم هؤلاء إلى فريقين، فريق يتكون من العسكريين وآخر من المدنيين أو حاشية السلطان .تشكل هؤلاء العسكرين من الصقالبة ورجال الجيش، والحرس الخليفي، وقد زادوا عن الألف، وهم يرون أن الملك بأيديهم وأن لا غالب لهم، لقد تكونت عندهم هذه القناعة للحظوة التي تمتعوا بها في القصر منذ عقود، وفاتهم أن أمرهم قد دبر بليل، وأن تصفيتهم وإخراجهم من القصر مسألة وقت فقط.

ترأس هذا الفريق فائق المعروف بالنظامي صاحب البرد والطراز بمعية جؤذر صاحب الصاغة والبيازة، وإليهما كان أمر الفتيان الصقالبة خارج القصر. اما المدنيون فتألفوا من حاشية الخليفة وهم الحجاب والوزراء، ومنهم زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم، وهشام بن محمد بن عثمان وحتى بعض الشخصيات البربرية والتي كانت مألوفة لدى القصر من أيام الحكم المستنصر مثل بني برزال الذين هم بطانة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي الذي طالما شجع الخليفة الحكم على استقدامهم وهو من يرأس هذا التيار.

وفي حقيقة الأمر هناك جماعة أخرى، وهي طبقة الفقهاء التي تشكلت معظمها من العناصر العربية يمنية وقيسية، وزعيم هذه الطائفة هو محمد بن أبي عامر المعافري اليمني الذي عرف كيف يدير الصراع القائم بين الطائفتين، ويجردهما من عناصر القوى التي تمتعت بها الطائفتان، وظل يحيك المؤامرات دون كلل حتى وصل إلى سدة الحكم وذاع صيته، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن عامر بن أبي عامر بن الوليد.

بن يزيد ابن عبد الملك المعافري وهي قبيلة يمنية عربية وهي فرع من حمير، وهم بيوت متفرقة بالأندلس منهم آل حجافببلسية وبنو مفوز بينبةوبنو منخل ، وهم بيوت متفرقة بالأندلس ولهم دار جامعة وأمه تميمية بريهة بنت يحي بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال حتى قال فيه أحمد بن دراج القسطيلي يثبت نسبه لأمه وأبيه فقال:

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا في العلا وبدور

من الحميريين بين الذين أكفهمسحائب تخمي بالندى وبحور

وكاد الخلاف المحتدم بينهما أن يجر الفريقين إلى أتون المواجهة، لولا ان تدارك الأمر الحاجب جعفر بن عثمان بحيل المؤامرة وتفويت الفرصة على الفريق الاول، وذلك بالاقدامعلى قتل المغيرة بن عبد الرحمان الناصر الذي أراد الصقالبة تعيينه خلفا للحكم بدل نجله هشام، فأقدم محمد بن أبي عامر على تنفيذ المؤامرة مؤيدا من جماعته الذين قالوا له«أنت أحق بتولي كبره لخاصتك بالخليفة هشام ومحلك من الدولة وكانت هذه الخطوة الجريئة التي أقدم عليها المنصور لا تعدوا ان تكون رسالة أوعز بها إلى أعدائه ومقربيه، مفادها أنه لاتعوزه الأسباب إذا ما أراد الوصول إلى مبتغاه وانه لا يتورع في الإقدام على فعل أي شيء.

وفوق هذا وذاك فإن المنصور اتسم بطموح لا حدود له ،وحنكة سياسية لا جدال في جدارتها كما انه تميز بقدرات خاصة على اجهاض الدسائس والمؤامرات.

والجدير بالذكر فإن هذه الشخصية التي ذاع صيتها إنما ساهم في صنعها الظروف السياسية، فهو بالرغم من انتمائه إلى بيت متواضع فقد تمكن بالاستئثار بالحكم طوال عهد هشام المؤيد، واستطاع بدهائه أن يتخلص من أعدائه بالقتل تارة وبالعزل أخرى.

كانت أولى خطوات التألق، يوم ان فتح له مكتبا قرب باب القصر، يكتب للناس تظلماتهم ومرافعاتهم للسلطان، فقد سمح له عمله هذا بالاحتكاك بخدام القصر.

فلما استعملته واطمأنت إليه، نبهت الحكم إلى مهارته وحسن تدبيره فولاه عدة مناصب، اظهر فيها نجابة واستحقاق، وأبان عن الكثير من خصال التفوق،سواء في مجال التسيير الاداري أو في تدبير الشؤون العسكرية، إلى ان عينهالحكم قبل وفاته وزيرا لابنه هشام.

وذاع صيته بين الجند والرعية حين تصدى لتحرشات الاسبان في الشمال، وتعد هذه الحادثة من الظروف التي استغلها المنصور أحسن استغلال، وهي مناسبة ملائمة، حيث تزايد خطر الحملات الصليبية على الخلافة بعد وفاة الحكم، وصادف ان أبدى أبو جعفر المصحفي تهاونا في

مجابهتها، فانبرى لها المنصور وقاد عدة حملات عسكرية كللت بالنجاح، وعلى صيته بين الأجناد وتردد اسمه بينهم كبطل مغوار عدّ من رجالات طوارئ الدولة ، خاصة وأنه عاد بغنائم كثيرة من حملاته تلك فأغدق على الناس وكان ذلك كافيا لإستمالتهم إليه دون الحاجب المصحفي الذي تميز بالنبل والفصاحة.

ونظرا للمكانة التي حظي بها المنصور لدى السيدة صبح البشكنشية أيام الخليفة الحكم فقد ازداد حظوة لديها بعد وفاته، فقد كانت الأمور تجري على يديه فقد كان هو الداخل والخارج بالأوامر منها للحاجب والوزراء، ومع ذلك فقد وجد أمامه طريقا شاقا محفوفا بالمخاطر، يتربص له فيهالخصوم والأعداء، واستطاع بعزيمته التي لا تقهر وذهنه المتقد أن يشق طريقه كقائد عسكري وسياسي، منتهزا في ذلك الفرص المتاحة، فقوى نفوذه على حساب رجال الدولة وتفرد بالحكم وتسمى بالمنصور ومارس مهام السلطان نيابة عن الخليفة القاصر هشام المؤيد.

واستطاع بدهائه أن يمكر بهم ويضرب بعضهم ببعضإذ كان يرى ان بقاءهم في جهاز الدولة يحول دون تمرير مشروعه الاصلاحي وفي كتاب التبيان اشارة إلى هذه التصفية التي أقدم عليها المنصور فقد«.... وإخماله لأهل الدولة الحكمية وتقصيهم بالقتل متأولا في ذلك أن به تصفى دولته ويقوى سلطانه، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتن وملاك المسلمين حتى اتسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى».

شرع ابن أبي عامر في ترسيم سياسته بالتنكيل بالصقالبة، مستعينا بذلك بجعفر بن عثمان المصحفي وقد أمعن المنصور في التنكيل بهم واخراجهم من القصر يقول صاحب كتاب تاريخ الاندلس: «فأعمل الرأي مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي في الصقالبة القائمين بأمر القصر والمملكة حتى أخملهم وأذلهم حتى عجب الناس من شدة السخط عليهم».

واستطاع بهذه الطريقة أن يقمع الصقالبة، ويخرجهم من القصر، ويعوضهم بالفتيان العامريين الذين كانوا نواة دولته.

لم يتوقف المنصور عند هذا الحد بل مضى في تجفيف كل المنابع التي قد يجئه منها الخطر فاحتاط لذلك بالتخلص من خصم عنيد له دراية بخبايا القصر ألا وهو جعفر المصحفي، وحتي ينفرد به ، مهد لذلك بالتقرب إلى ذي الوزارتين والسيفين القائد غالب بن عبد الرحمان صاحب مدينة سالم وأمير الثغور، فارتبط به برباط المصاهرة وتزوج من ابنته أسماء عند ذلك أفصح عن مواقفه حيال جعفر المصحفي فأمر بعزله عن الحجابة والقبض عليه وزجه في السجن، فلما اشتد به الحزن على حالته التي آل إليها واصل استعطافه واستغفاره إليه، ووصل به فوره طمعا في الحياة أن كتب إلى ابن أبي عامر يعرض نفسه عليه لتأديب ابنيه عبد الله وعبد الملك فقال ابن أبي عامر:«أراد أن يستجهلني، يسقطني عند الناس وقد عهدوا مني ببابه مؤملا، ثم يرونه اليوم بدهليزي معلما».

ولم يكتفي المصحفي بهذا العرض فحسب بل وظف كل وسيلة رجاء التماس العفو من المنصور، وراح يضرب على وتر الشعر عله يمس شغاف قلبه ويتجاوز عن زلاته، ومن شعره في هذا الباب.

هبني أسأت فأين العفو الكرم إذ قادني نحوك الاذعان والندم

يا من مدت لأيدي إليه أما ترثي لشيخ نعاه عندك العلم

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحمويقول المقري التلمساني معلقا على موقف المنصور من هذه الأبيات «فما زاده ذلك إلى حنقا وحقدا وما أفادته الأبيات إلى تضرما ووقدا» لم يصغ إليه المنصور وبالغ في إذلاله إذ كان يأخذه مكبلا بالحديدوأوعز إلى شاعره الخاص عبد الملك بن ادريس أن يرد عليه بأبيات يروي مماثل فأنشر عبد الملك قائلا:

الآن يا جاهلا زلت بك القدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم

أعربت بي ملكا لولا تثبتهما جاز لي عنده نطقا ولا كرم

نفسي إذا سخطت ليست براضية ولم تشفع فيك عرب ولا عجمفلما استيأس المصحفي وظن أنه واقع به، استكان وأيقن بالنكبة وزوال الحال وأدرك أنها سنن الله الماضي، وأن للزمان مسارات وأحزان، وكان من هلاكه على هذا يقين ولم يمنعه خوفه من حتفه الذي هو آيل إليه لا محالة، من أن يتفوه بهذه الأبيات:

لا تأمنن من الزمان تقلبا إن الزمان بأهله يتقلـــــــب

ولقد رآني والليوث تهابني وأخافني من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مذلة ومهانة أن لا يزال إلى لئيم يطلبوعزله المنصور في سجن المطبق بمدينة الزهراء إلى أن لقي حتفه، وقيل قتل خنقا وقيل أمر به فجعله في تابوت وأحرق بالنار وهو حي.

وبعد أن تخلص ابن أبي عامر من خصمه العنيد، استدار نحو خصم أخطر منه، يتربص به للإطاحة به، حيث كان يعلم نواياه، وأهدافه التي كان يرمي إليها، بعد أن أصبحت مفاتيح السلطة في يده وبدت علامات الانفراد بالسلطة لا يرقى إليها شك.

إلى أن وقعت الوحشة بينهما، وساءت العلاقات، فأخذ كلاهما يتوجس من الآخر فأدى ذلك الحرب بينهما، علق على ذلك ابن الخطيب بقوله: «فنافسه غالب لما رآه يطوي الدولة طيا وينشبها خاقا جديدا منسوبا إليه، معروف باصطناعه فأضمر له الخديعة ورجا منه الاراحة وصانعه ومال في هواه»

لقد كان المنصور يعلم أنه ليس من السهولة أن يقضي على هذه الشخصية، لأن غالبا كان عسكريا صلب المراس، يفوق المنصور في الفروسية والشجاعة والاقدام، لذلك اهتدى المنصور إلى الاستعانة بقائد بربري لا يقل عنه شجاعة وفروسية، ألا هو جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي الذي استقدمه من الغرب في ستمائة من المقاتلين البربر كل ذلك من أجل أن يعضد ساعده ويتفوق على خصمه غالب.

وللإشارة فإن هذه الدفعات البربرية هي اللبنة التي أسس عليها المنصور جيشهكانوا هم الدعامة الأساسية التي انضافت إليها طوالع أخرى من البربر، لما لقوه من الاحسان والعناية وفي هذا يقول ابن عذاري «وكانت هذه القطعة من البربر نحو الستمائة ومازال بعد ذلك يستدعيهم ويضمن الاحسان إليهم، والتوسع عليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس وانثالوا على ابن أبي عامر وما زالوا يتلاحقون وفرسانهم يتواترون... »

لم يكتفي ابن أبي عامر بهذه الثلة من البربر المقاتلين الذين جعلهم في ميمنة جيش المعد للقاء غالب بقيادة جعفر بن علي، بل دعم صفوفه جيش من جند الثغور بقيادة أبا الأصوص معن بن عبد العزيز التجيبي وحسين بن أحمد بن عبد الودود وجعلهم في الميسرة.

وفي عام 371هـ 981م التقى الجمعان في معركة فاصلة في سان فيسنتي، اضطرب فيها المنصور بن أبي عامر لما رأى من هول المعركة، والتنظيم المحكم الذي كان عليه جيش غالب، الذي كادت كفة النصر أن ترجع لصالحه، لولا أن حدث ما لم يكن متوقعا حيث سقط غالب من على فرسه، وعثر عليه مقتولا بين حوافر الخيل.

وبشر المنصور فكان ذلك أسعد أيامه، ولم يبقى له بعد ذلك من يخاف منه على ملكه.

وبعد نهاية المعركة استغل المنصور حماسة جيشه المنتصر، وزحف به نحو الشمال في أراضي ليون وشن هجومات، ضد رامير الثالث الذي شارك في جيش غالب فانتصر عليه وعلى حلفائه، سانشو ملك نافاراوغارسية فرناندو ملك قشتالة ومع ذلك فقد ظل المنصور دائما في تصفية من يتوجس منهم أو يشك في موالاتهم له.وكان يصل إلى تحقيق ذلك دون أن يثير القلاقل وكانت الدائرة على من قدم له المساعدة في التخلص من خصمه غالب، ألا وهو جعفر بن علي بن حمدون، فاستعان عليه بأبي الأصوص معنى بن عبد العزيز التجيبي فارس المغرب في طائفة من أصحابه الأندلسيون فدعاهم إلى وليمة كان قد أعدها، وقدم له شراب يتناوله جعفر حتى ثمل، وارصد له من يقتله وهو سائر بالليل إلى منزله في قصر العقاب عام 372هـ / 989م، وتظاهر المنصور بالحزن عليه.

ومما يدل على ضلوع ابن أبي عامر في قتل جعفر، يستشفى ذلك في الحوار الذي دار بينه وبين يحي بن علي أخو جعفر، وكان أول لقاء بعد قتل أخيه، فقال له «قد علمنا قتله وهذا جزاء مثله، ولا مقام بأرضك بعده، فقال المنصور : لولا أن أصدق ضنك في أخيك لألحقتك به، فاخرج إلى لعنة الله غير مكلوء ولا مصاحب».وليمحوا المنصور آثار جريمته، قتل أبا الأحوص وانفرد وحده بالحكم.

الجيش في عهد المنصور:

لما تخلص الحاجب المنصور بن أبي عامر من مناوئيه في الداخل، وهي الزمرة التي قدر المنصور أن يأتي منها الخطر، وهذا العمل دأب عليه حل خلفاء بني مروان في الأندلس وعلى رأسهم عبد الرحمان الناصر في تنقية الأجواء الداخلية ثم التفرغ للجبهة الخارجية. هذا وقد عمد المنصور بعد ذلك إلى تقوية مركزه بإصلاح الجيش الذي يضمن له ذلك.

وعليه فقد كانت أولى الأولويات هو تطعيم هذا الجيش بالعناصر البربرية التي ليس لها ولاء داخل الأندلس سوى ولاء من أحسن إليها، فقسم المجال لهذه الشريحة من البربر.

واستقدم أعداد كبيرة من البربر وأدخلهم في خدمته ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يخشى بأسه، حتى سخط أهل الأندلس من هذه العناصر البربرية الغريبة عن بلادهم، مما أدى إلى فرار العديد من الأندلسيون من الجيش، وكان هذا النفور يحول دون اتحاد الجيش القديم ضد المنصور.

وفي النص الذي اورده ابن حيان ما يشير إلى هذا الولاء والمكانة التي حظي بها هؤلاء لدى المنصور قوله : «وأسرع موت الحكم على تفيئة ذلك فأعقبهم عاقب جعفر بن عثمان في تدبير سلطان هشام الوالي بعد محمد بن أبي عامر خيره فاستظهر على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاض بهم الرياسة في حياته».

إن أولى الدفعات من البربر التي خبرها المنصور في ميدان الحرب تلك التي صاحبت جعفر بن علي بن حمدون حين جوازه إلى الأندلس سنة 367هـ/987م وكانت عدة جيشه الذي واجه به

غالب نحو ستمائة، حيث استبسلت في هذه المواجهة ورجحت كفة النصر لصالح ابن أبي عامر بعدما كانت الهزيمة تلوح في الأفق.

وحول حرص المنصور على البربر والتعويل عليهم ، يسوق ابن خلدون نصا في غاية الامية قوله: «ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسةوغيرهم».

– وصادف ذلك أن تحرك في هذه الفترة نائب الفواطم على افريقية بكلين بن زيري الصنهاجي طالبا ثأر أبيه زيري في حملته التي أجهز بها على المغرب الأقصى، وأجفلت قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبتة قاعدة المرونيين في المغرب فاستغل المنصور هذا الوضع وبعث إلى رجال زناتة يدعوهم إلى القدوم إليه، وكان أعوانه قد أشاروا عليه بذلك حين قالوا له «قد أمكنك الله من اصطنع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم، فأرسل إليهم يأتوك فيجدوا إحسانك إليهم مكان».

وظل المنصور يستزيد من العناصر البربرية، يكبلهم بسلاسل الاحسان ويغدق عليهم خيراتهم، فتدفقوا عليه من كل نواحي العدوة وهذا ما ألمح إليه ابن عذارى بقوله : «يجيء الرجل منهم بلباس الخلق على الأعجف فيبدل له بلباس الخز الطرازي وغيره ويركب الجواد العتيق، ويسكن قصرا لم يتصور له في منامه مثله، حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس، ولم تزل طائفة البربر خاصة ابن أبي عامر وبطانته وهم أظهر الجند نعمة وأعلاهم منزلة»وبهم خاض دياجر الحروب وقاد الحملات ضد المسيحين ونال بذلك الشرعية في إدارة البلادوبهذه الروح الاصلاحية التي تحلى بها المنصور، كثرت أعداد البربر فحسنت أحوالهم وكثرت اموالهم، وحلوا محل جند الاندلس، ونسخ بهم جند الخليفة الحكم، وما زالوا خاصته وبطانته إلى ان انقضت الدولة العامرية».

ومما يعزز النص اعلاه، ويدل على النعم التي اغدقها المنصور على البربر، هو النص الذي اورده المقري نقلا عن كتاب الأزهار المنشورة في الاخبار المأثورة، الذي ينسبه احسان عباس محقق كتاب "نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب" إلى ابن سعيد المغربي . حيث يجعلنا المقري

أمام نص يكتسب اهمية بالغة في إظهار هذه الحقيقة حيث يقول: «فقدم إلى المنصور وانزمار بن أبي بكر البرزلي أحد جند المغاربة، وجلس للعرض والتمييز، والميدان غاص بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى يا مولاي مالي ولك ، أسكني فإني في الفحص، فقال: وما ذاك يا وزنمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتني عنها والله نعمتك، أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنهاوأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس، أتراني أبعد القمح عني؟ ليس ذلك من رأيي، فتطلق المنصور وقال: لله درك من فذ عيني نعيك في شكر النعمة أبلغ عندنا، وآخذ بقلوبنا من كلام كل أتشدق متزيد وبليغ متفنن، وأقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس فقال: يا أصحابنا هكذا فل تنكر الأيادي وتستدام النعم، لا ما انتم عليه من الجهد اللازم، والشكي المبرح، وامر له بأفضل المنازل الغالية»

ومن النص أعلاه يتبين مدى اعتزاز البربر وولائهم للمنصور بسب النعم التي ما فتئ المنصور يغري بها البربر، وبناله في مقابل ذلك إخلاصهم له، والانصياع للأوامر، ثم إن الرطانة التي ميزتهم في التعبير عن أحوالهم، لا شك انها كانت تبعدهم عن مجالسة الاندلسيين من العرب وفي ذلك مصلحة للسلطة الحاكمة إلا أن المنصور لم يتحرج من دعوة كبار البربر في مجالسه مع خاصته من رجال الدولة، بالرغم من إيذائهم له أثناء حربهم معه، وما حكاية زطزون البربري التي يرويها ابن عذاري إلا مثالا صغيرا لهذه السجاذة والجهل.

ففي احدى المجلس التي دعي إليها زطزون بن نزار البرزلي سأل المنصور فقال له «يا مولاي لما قتلت عبد الله ابنك» وله من الشجاعة والخصال الحميدة ما له، فقال له المنصور «لا يسؤك ذلك فلو لم أفعل لقتلني، ما كان من ولدي وبهذا اتهمت أمه وكانت أمة سوء وقالوا إن الأرحام الردية تفسد الذرية »

فقال رطرزون «كذا يا مولاي؟ فحرام أمه، فحرم أبيه» فخجل المنصور وقال«شقينا بهذا الملعون في حياته وبعد موته» وغلم ما كان عليه رطزون من الجهالة فاعرض عنه، وصارت كلمته مأثورة يتداولها الناس مدة من الزمن.

وبالرغم من قلق الاندلسيون من هذه الشريحة من البربر ، ظلت تنفق على بلاد الأندلس حتى بلغ جند البربر في جيش المنصور حتى وقت قريب من بلوغه سدة الحكم أربعة ألاف ومائتي فارس.

أما ابن الخطيب فيحدد عددهم إلى خمسة الاف ثلاثة ألاف فارس وألفي رجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور بن أبي عامر.

إن المتأمل في السياسة الاصلاحية التي ابرى لها المنصور ابن أبي عامر في الميدان العسكري، استهدفت تخليت الجيش من الغالبية الأندلسية، وإحلال العناصر البربرية، الحديثة العهد بدخولها الاندلس. لقد أصبح الجيش العامري ذو المكون البربري خطرا يهدد النسيج الاجتماعي الاندلسي بالانقسام حيث بدأت ارهاصاته في الجيش نفسه، وهذا الانقسام سيؤدي حتما في حالة اضطراب النظام إلى حرب اهلية، وبالموازاة لذلك أنشأ الحزب العامري من الطامعين الانانيين الذين لا يهمهم سوى الاستحواذ على التركة خلفها أسلافهم من العامريين، ومن حكم قبلهم من المروانيين.

– لقد كان الهدف من هذه السياسة هو اضعاف الروابط القبلية والزعامات المتجدرة داخل الهيئة العسكرية، وتقريب العنصر البربري، وترقية البارزين منهم وتكليفهم بمهمات حربية لإعلاء مراتبهم .قل ذلك لينفي عن نفسه لاتهام، بتفضيل البربر على سائر الاجناد من العرب الأندلسيون، مثلما فعل مع جعفر بن علي بن حمدون الذي كلفه قيادة ميمنة الجيش في مواجهة غالب، ومحاربة الجلاقة المتحالفين في الشمال.

ومما تجدر الاشارة إليه أن الأرستقراطية العربية في المنتصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانت قد ابنتت في كامل قطاعات الدولة وخاصة في الجيش الاندلسي، لذلك حرص المنصور على زعزعتهم وابعادهم عن هذه المؤسسة التي حقق المنصور بواسطتها أهدافه في الداخل والخارج، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون قائلا:«وقدم رجال البرابرة وزناتة، وأخر رجال العرب، وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر».

ويفهم من قول ابن خلدون أيضا أن المنصور أقحم في جيشه متعمدا العناصر البربرية بمختلف اطيافها وانتماءاتها القبلية، البرابرة الذين يراد بهم صنهاجة وزناتة هاذين الفصيلين الذين لهما من سوابق التناحر والتدافع ما تحدثت به الركبان في بلاد المغرب، وهذا ما كان يرجى إليه المنصور من تجميع العناصر المتنافرة داخل الجيش لضمان خضوعها وولائها له، ويكون بذلك قد حقق الانفراد بالملك والاستبداد بالأمر، بعد أن أذل قبائل الأندلس وضربهم بأضدادهم.

ومع ذلك فإن المنصور لم يقدم علة احداث هذا التغيير للغاية التي أسلفنا ذكرها وإنما لخلفيات عاينها المنصور في بداية مشوار الحجابة، عندما لاحظ رجالات المروانية أن نفوذهم بدأ يتقلص ليس هذا فحسب بل لاحظوا أن حركاتهم وغدواتهم وروحاتهم أصبحت تحت الرقابة.

وتحت هذا الضغط الذي لم يألفوه من قبل دبروا مؤامرة من أجل القضاء عليه وإعادة النفوذ إلى غيره من أفراد الامويين الاكفاء.

وبدافع لهذه الخلفيات وغيرها، التي خبرها المنصور في الأندلسيين هي التي كانت وراء احداث هذه الهيكلة الجديدة .

لإيصال في أن المنصور ظل طوال حياته متخوفا من هذه الفئة ولم يتردد في العبير عن قلقه من هذه الفئة، ونعني بها الفئة المروانية– حتى في لحظات نزعه الأخير عندما دعا ابنه عبد الملك وقرأ عليه وصيته الطويلة وقد أوردها ابن الخطيب في كتابه أعمال الإعلام ومنها : «.....وصاحب القصر قد علمت مذهبه وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب بإسمه فلا تنم عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء الظن والتهمة.....ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة فتنسوا آمالكم في بطون بني أمية وتوسعتهم بقرطبة»

ظل المنصور يستخلص رجالات البربر لنفسه، ويعتمد عليهم اعتمادا كليا. ولكي يضمن ولاء صنهاجة وزناتة قرب أعيانهم وسراتهم، حيث كان نوح الدمري أحد كبار أعيان

بني دمر والمقربين عنده، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله:«وكان من رجالاتهم نوح الدمري وكان من عظماء أصحاب المنصور ».

وكانت هذه الفئة من بربر بني دمر حيث استظهر بهم المنصور على خصومه في غزواته المعروفة التي ناهزت ست وخمسون غزوة وكانت غزوة جربيرة. وهي احدى الغزوات التي ابتلى فيها جيش المنصور وزلزلوا زلزالا شديدا حتى أنهم ودعوا بعضهم بعضا بعد أن يئسوا من الحياة، وفي كتاب أعمال الأعلام إشارة إلى هذا البأس والهزيمة المؤكدة حين يقول:«حتى جعل كاتب المنصور عبد الملك بن ادريس الجزري يقول سعيد بن يوسف المعروف بابن القلينة «هلم إلى التوديع يا شهيد» قصعا على حلول المنية فكان مأثورا بعد انقضاء اليوم» وهي الوضعية التي أسالت دموع المنصور حزنا على فراق احبته وولده وكان قائما إلى جنبه، يتلفت إلى الحرب، فلا يأذن له ابه فأستأذنه وودعه، وجعل يقبل وجهه، ونحيبه عال وأرسله نحو الميمنة موطنا على فقده».

وفي غمرة البأس انحنت ثلة من فرسان البربر وعلى رأسهم كيدرالدمري الأبرص الذي شق طريقه نحو قوامس ابن غومس وجاء برأسه ليحول الهزيمة إلى نصر ويلخص ابن الخطيب هذا الحدث بقوله«.....ومعه أبطال من أعلام المسلمين الأندلسيين والعدويين عامتهم فرسان البرابرة على أن الاسم منهم في هذا اليوم ذهب إلى كبير الدمري الأبرص من كبار القواد وأحد ملوك بني دمر بالعدوة وكان له إقدام عظيم قتل في احتدامه ذلك قوامس ابن غومس وجاء برأسه واستمرت الهزيمة على أثره وما قصد عبد الرحمان بن المنصور في شدة الاقدام، وثبت المقام وكانت حربا عظيمة تغتاض عن الصفة».

ومن هذه الوقائع وغيرها التي اظهر فيها البربر استبسالا وجلد منقطع النظير ظل المنصور يستزيد منهم ويحسن إليهم في آن واحد، ويستدعي كراءهم وأعيانهم من صنهاجة وزناتة.

– ونجد تبريرا عند ابن جيان لحاجة المنصور لهؤلاء البربر كمقاتلين أشاوس، ووصفهم وصفا يليق بهم في ميدان الحرب والكريهة بالرغم من موقفه السيء حيالهم كعنصر بربري كان وراء الكثير

من المفاسد التي لحقت بالأندلس حيث يقول: «وقاموا مقام الفلاذ في الحديد، فلا يقتل الاعداء إلا بهم، وتعم الأرض إلا في جوارهم».

وقد اكسبت هذه المشاركة المستدامة في جيش المنصور سمعة وثناء خاصة البطولات والروائع التي أنجزوها في ساحات المعارك، وغدو من أيامهم حديث الخاص والعام، فتسامع الناس بهم عبر كامل أرجاء الأندلس مما أثار غيرة الأندلسيين وحسدوهم على هذه المكانة، وتمنوا أن يكونوا مثلهم وقد أشار ابن الأثير إلى هذه الحادثة بقوله: «لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور ابن أبي عامر لقد نشطنا هؤلاء-أي البربر- للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد».

وعلى أي حال فإن المنصور ابن أبي عامر عرف كيف يتماهى مع هذه الفئة من المغاربة ويجعل منها أداة يضرب بها على أيدي أعدائه في الداخل ويسكت أصواتهم وأداة لمواجهة اعدائه من الجليقيين في التخوم الشمالية حيث كان المنصور يسجل حضوره بجيشه مرة و مرتين في السنة دون أن يقرع طبول الحرب واتخذها سنة جهادية، ليرفع بها هامة جنده، ورعيته.

عاش المنصور طوال أيام حكمه متأهب لا يركن إلى راحة أو خلو بال، حيث يذكر ابن الخطيب أن كاتب المنصور طلب منه أن يريح نفسه بعد سهر طويل في تدبير شؤون الدولة فأجابه: «حارس الدنيا لا ينام، إذا نامت الرعية: لو استوفيت نوحي، لما كان في دور هذا البلد عين نائمة...».

ومع ذلك فقد كان قلقا متبرما على دولته التي بناها بالطموح والتضحية، ولعله كان يعرف أنه بحنكته ودهائه جاثم على صدر الكثير من الفتن التي تحتدم في جوف المجتمع الاندلسي المتكون من عناصر قبلية مختلفة وطبقات وكتل تحرص بعضها بعضا، وكان هذا الوضع قابل للاشتعال في أية لحظة، يغفو أو يختفي فيها الحاكم وهذا شان الدول التي تربط مصيرها بالأفراد فتصعد مع الشخصيات الفذة وتهبط مع الضعفاء.

اختفى المنصور عن مسرح الأحداث سنة 392هـ/1001م وهي السنة التي توجت آخر غزواته إلى بلد ابن غومس صاحب قشتالة. بمدينة سالم التي بناها بوادي الحجارة من الثغر الشمالي، وأقامها في أراضي العدو.

ولما اشتد به المرض، وفترت قوته، لم يقدر على الحراك، صنع له سريرا من الأخشاب وحمل على أعناق الرجال عزيزا على فراش التبجلة والتكرمةوعسكره يحف به وبين يديه لمدة أربعة عشر يوما حتى بلغوا مدينة سالم، وفيها أسلم لبارئنا في 27/رمضان/392- وهو ابن خمسة وستون سنة وعشرة أشهر ودامت دولته ست وعشرون سنة غزا فيها اثنين وخمسين غزوة واحدة في

الشتاء والأخرى في الصيف ، وكان قوام جيشه من البربر الذين حارب بهم الحروب عشرة ألاف وخمسمائة وأجناد الثغور مثيل هذا العدد.

الفتنة القرطبية

تشير بعض الدراسات التاريخية الحديثة. على أن بذور إنهاء الخلافة التي انطلقت شرارتها نهاية القرن الرابع الهجري، قد ولدت عهدي عبد الرحمان الناصر والحاجب المنصور بن أبي عامر

بيد أن الوقائع التاريخية التي شهدتها الأندلس في عهد المنصور، تبرز بوضوح أن عهد الانهيار قد حملتها أيام المنصور وحده، لتنفجر بعد أقل من عقد من الزمن بعد وفاته.

أما عبد الرحمان الناصر فقد أسس لدولة استمرت عهد نجله الحكم المستنصر الذي لم يكن في مستوى والده من حيث ادارة الحكم.

وحجة هؤلاء ان الخلافة الأموية قد ارتبطت بالفرد وليس بنظام، ولأن استمرت القوة والاستمرار فذلك مستمد من أسلافهم.

فمثلا القوة والدور الذي ظهرت عليه الدولة الاموية في الأندلس على عهد الخلافة فهي القوة التي كان يكتسبها الحاكم من سلفه.

هذا صحيح ولكن حكم الفرد ليس بالضرورة حكما فرديا في جميع الأحوال.

فدولة الخلافة في عهد عبد الرحمان الناصر قد مارست الحكم الفردي على مؤسسات ولكن من جانب الحرص على ضمان فعالياتها واستمرارها، أما ادارتها وتسييرها فقد مورس من قبل عناصر الدولة الأكفاء.

لذلك فالبناء المستوي لهذه المؤسسات من شأنه أن يستمر في أعقاب الحكام الذين يتوالون على كرسي الخلافة.

وعلى أي حال فإن الوقائع التي انبعثت منها شرارة الفتنة، فهي تبدأ بالعزلة المطبقة التي فرضها المنصور على هشام المؤيد وسياسة جز الرؤوس لمعانديه، مما جعل المنصور مطلق التصرف في شؤون الدولة من جميع النواحي، حيث يصور لنا ابن حزم شخصية هشام أمام هذا التسلط قائلا:«وماكان هشام المؤيد بدونهم إلا أنه كان ممس لا يؤذي أحدا ولا يمنع أحدا من أن يؤذى».

ظل المنصور كما أسلفنا يقبض على الحكم بيد من حديد فجمدت من أيامه القلاقل والاضطرابات، وخمدت معها الأحقاد والعصبيات التي ظلت تختلج في صدور أصحابها من مختلف شرائح المجتمع الأندلسي.

فلما أفل نجم المنصور خلفه ابنه عبد الملك المظفر الذي لقب بسيف الدولة وكان سنه آنذاك 28سنة، وقد ورث عن والده ملكا واسعا ولكنه كان مهددا بالأخطار وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كثيرة أثبت فيها جدارة ومهارة عالية.

وهو بهذا الفعل أراد أن يحافظ على هيبة الدولة، وان يظهر للناس بأنه ليس بأقل شجاعة في الحروب من أبيه، وأنه باق على سياسة الغزو التي سار عليها والده.

ويستنتج من هذا الاقدام ومواصلة حرب الناصر أن الحكم الجديد كان يستمد مكانته كحاكم قوي توجب طاعته من حربه للنصارى، وهذ ما يلاحظ عند أغلب الأمويين، ولعل هنا الحرص على بلوغ المكانة هو الذي أودى بحياة عبد الرحمان شيخول عندما أصر على الخروج في الأيام الأولى التي كان فيها حتفه.

لم يدم حكم عبد الملك أكثر من 6أعوام وبضعة أشهر، حيث مرض أثناء غزوته السابقة فحمل إلى قصر الزهراء في 16/صفر سنة 399-20/أكتوبر/1008.

وشهدت الأندلس أيامه حالة من الاستقرار ويسر الحال، والابتهاج في كتاب المعجب مما يدل على ذلك «كانت أيامه أعيادا في الخصب والأمان، دامت سبع سنين إلى أن مات وثارت الفتن بعده»

فأقبه أخوه الذي لم يقتفي أثر أبيه، ولا هو حاك أخاه، بل كان نسيج وحده في الخلاعة وضعف الشخصية، وتبذير المال العام.

وكان نسبه من جهة الأم محل ازدراء وشؤم، إذ كانوا ينادوه بشنجول الصغير فهو حفيد ملك بنبولةسانشوا غرثيه الثاني، وكان يلتقي مع هشام الثاني في كون الوالدتين من نبرة، وكانت هذه الوشجة دافعا لدعوى كل منهما الآخر إلى بعض الإحتفالات التي كثيرا ما شارك فيها الحريم من الطرفين فكان هذا الإنصراف إلى اللهو يولد عند القرطبيين نقمة وحسرة، إلى ما آل إليه السيد الجديد لإسبانيا.

لم يقف عبد الرحمن شنجول عند هذا الحد، بل قاده تهوره واستهتاره إلى أبعد من ذلك، وكان يسعى إلى أن يستصدر مرسوما بتعيينه وليا للعهد، بحيث تنتقل إليه الخلافة بعد موت هشام وقد تسمى بألقاب الخلافة كالناصر، والمأمون تيمنا بالخلفاء العظام ، من العباسيين والأمويين في الأندلس، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة ولعلها أول محاولة في تاريخ الإسلام يطمح فيها رجل من خارج السلالة القرشية وقد أثارت هذه الحادثة غضب الأندلسيين، وامتعض منها فقهاؤهم.

وقامت قيامتهم لأن الرجل من الناحية الأخلاقية لم يكن مؤهلا لمنصب وحول هذا التهور اللامسؤول يقول ابن حيان«قد تقدم القول بسبب هذا قلق هذا الجاهل، بدعوى الخلافة عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة بل جرها بالعجلة».

ومهما يكن من أمر فإن عبد الرحمان بن المنصور تعجل الوصول إلى نهايته، التي بدت وشيكة، بعد أن هيأت خطواته الجريئة، الأسباب للانقضاض عليه وحول هذه المحاولة في طلب ولاية العهد أورد الدكتور ابراهيم بيضون نصا في غاية الأهمية، قائلا: «فالدولة العامرية التي حكمت الاندلس

من منصب الحجابة لاغية دور الخليفة القابع في قصره، لم يتح لها ذلك دون جهود المنصور وعبقريته السياسية التي لم ينتقل منها شيء إلى ابنه الجاهل(كما وصفه ابن عذارى) فعلى العكس من ذلك كان الحاجب الجديد هو القيصر متآمرا عليه بسكوته النافر واستخفافه بالأعراف قبل أن يسوقه إلى حتفه خلال شهور قليلة، وكأنه جاء فقط لتكريس عملية السقوط المخزي»

كانت هذه التصرفات الحمقاء كفيلة بأن توقد حذوة الفتنة التي اتت على الأخضر واليابس، حيث يقول ابن عذارى أن ادعاء العهد هو الباعث على الفتنة.وعليه فإن الأندلسيين قد ذهلوا من انتقال الخلافة من العصبة المضرية إلى أيدي الأسرة العامرية القحطانية، وقد صور ابن عذارى ،ما نزل على الأندلسيين من حزن وضيم لم يسبق لهم أن تجرعوه من قبل قوله: «وعزا وجوه الناس من أهل قرطبة لهيئة المغرور عبد الرحمان بهذه المحنة التي كانت أعظم محنة كلهم يعزي عنها نفسه ويكفكفوا عبرته ثم نحملوا بالملقب.....وخرجوا من عنده أي المروانيون وأهل بيت هشام- وقلوبهم موقودة ببعضه». وضجوا لذلك واستعظموا طغيانه وغيه وكانت هذه الأسباب القاهرة التي أدت إلى ظهور الفتنة في الشهور الأولى من حكم شنجول وما لبثت ان تحولت إلى حرب أهلية بالمفهوم المعاصر.

وكانت بداية هذا الحراك حين التف الأمويون حول شاب يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار هذا الفتى الذي سبقه والده في محاولة انقلابية ضد عبد الملك ابن أبي عامر وباءت بالفشل وأعدم لتوه مما ترك أثرا بالغا في نفسيته، دفعته للأخذ بالثأر من العامريين مستغلا سقطة شنجول وطلبه للخلافة وغضب الأندلسيون عليه.

لم يكن المروانية وحدهم في هذا التدبير، قصد سحق العامريين، فقد عظمتهم الفلول الناقمة من سائر قريش والمضرية واليمنية، ومن سائر البيوتات العربية التي عانت من سياسة القمع التي مارسها ابن أبي عامر عليهم، واخضاعهم عنوة للعناصر البربرية والصقالبة.

ومما هو جدير بالذكر وقبل الحديث عن وقائع هذه الفتنة التي تأرجحت بين مسميات مختلفة، كالفتنة البربرية وهي تسمية تداولها أهل الاندلس والفتنة القرطبية، التي آثر بعض المؤرخين الإعراض

عن عن تعيين المتسبب فيها، لكن أوعزوا إليه في قضايا المتون التي تجعل الباحث يقف كل من كان وراء الفتنة دون إمعان نظر.

وفي المقابل نفى الكثير من المعارضين مسؤولية البربر إثارة الفتنة، عندما نسبوا ذلك إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار، ومنهم ابن الأبارالقضاعي الذي عاش في القرن السابع الهجري. وهو مع ذلك خبر تاريخ الأندلس ورجالاته ليقول: «محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر باعث الفتنة بالأندلس وهو موقد نارها الخامدة وشاهر سيفها المغمد

وبنفس العبارة، والحدة ، أورد ابن عذارى نصا صريحا، استلهمه في حقيقة الأمر من الوقائع التي مهدت للفتنة ، حيث كان ابن هشام السهم الذي لم يخطئ المروانيون به عندما صوبوه نحو العامريين، وفي هذا يقول ابن عذارى: «فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار فكان الأحق والأولى».

وعلى هذا المنوال نسج المقري التلمساني، حيث ألقى اللوم على محمد بن هشام في اشعال نار الفتنة قائلا: «لقد كان قيامه مشؤوما على الدين والدنيا، فإنه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس وماحي معالمها حتى تفرقت الدولة وانتشر السلك وكثر الرؤساء وتطاول العدو إليها وأخذها شيئا فشيئا حتى محى اسم الإسلام منها»

وتتابعت أقلام المؤرخين في تحميل هذه الشخصية مسؤولية الفوضى والانهيار اللذين ألما بالأندلس، وهذا ابن خلدون عبد الرحمان لا يفوت على محمد ابن هشام اتهامه ببعث الفتنة بقوله: «حتى خشي الناس من اقتحام البرابرة عليهم فأعزوا أهل القصر وحاجبه، المدبر المهدي، وأن الفتنة إنما جاءت من قبله»

وفي الجانب الآخر يقف ابن حيان وهو عمدة في ارخوا لهذه المرحلة ليحمل البربر مسؤولية ما حدث أيام الفتنة، فقد ألف كتابا أنافت أسفاره على المائة أسماه «أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشائعة» وفضلا عن هذا المؤلف فهو قد حمل البربر

مسؤولية البدء في إشعالها في الكثير من النصوص التي حوتها كتبه منها هذا النص: «واعتدوا بعده على الخليفة في معنى في معنى الامتعاض منهم، لعدواتهم على ولده اعتداء صار إلى ما هم الآن بصدده من أبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة»

مع ذلك يمكن القول: أن مذهب ابن حيان في تحميل مسؤولية الفتنة جاء في إطار شامل للمجموعة الآتية على حد قول الأستاذ الباحث محمد بن عبود قوله: «يمكننا أن نستنتج بأن منهج ابن حيان لعهد الطوائف كان شاملا، بحيث انتقد جميع العناصر الآتية المسؤولة عن اندلا ع الفتنة»

وعلى أية حال فقد حلت ساعة الحسم عندما تهيأ عبد الرحمان بن أبي عامر للقيام بحملة عسكرية شاتية 399هـ 1009، ولم يلق بالا لفتاه الأكبر الذي خصمه بالعدول عن الغزو والبقاء في قرطبة، احتياطا لما قد يحدث من مكروه فقد بلغه أن أحد المروانيين يهتم بالقيام عليه، وقد استجاب له خلق من الجند فرد عليه عبد الرحمان قائلا: «والله لو اجتمع بنوا مروان أبي مرقدي، وأنا نائم ما أيقظوني»

كانت أولى العمليات الفدائية إن صح التعبير وبعد أن أطمأن محمد بن هشام محل دخول سنجول بلاد صقلية وأمن من سرعة رجوعه، أذن الرجال بالدخول إلى القصر بعد أن أعدوا لذلك الهجوم بأحكام، فدخلوا على صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر وأوكل مهمة القبض عليه إلى طرطوس المجوسي وكان أشجع جنده، ثم أسلمه إلى محمد بن هشام الذي ضرب عنقه، وفصل رأسه عن جسده وترك جسده مطرحا وسط الطريق تطؤه الأقدام، كل ذلك بث الرعب والخوف في أوسط مناوئيه.

فتداعت لهذا الحدث الفضيع جماعات من العنازين والجزارين والسفلة وسائر الغوغاء الذين لا يحصى لهم عدد.

وما إن استقر له الأمر ، وتمكن من بسط نفوذه، أرسل إلى عليه القوم من فقهاء وقضاة العقد البيعة له ولم يتخلف أحد عن مبايعته، وتسمى بالمهدي في جمادى الأخيرة سنة 399هـ 1009م

فلما انتهى خبر الثورة إلى عبد الرحمان بن أبي عامر قفل راجعا إلى قرطبة، يسابق الريح في الوصول إليها.

وفي الطريق انسحب حل من كان معه من الجند حتى لم يبق معه إلا خاصته

بسبب احتقارهم له وتصفية واضح حاكم طليطلة بألا يفعل إلا أنه ركب رأسه، وتوجه نحو قرطبة يحسب ان أهلها سوف يرحبون به وارتكبت جموع البربر المرافقة له ، لما سمعوا التفاف أهل قرطبة حول ابن عبد الجبار، وخوفا على أسرهم البربرية من العامة توجهوا نحو قرطبة مسرعين، وفي مقدمتهم أبو زيد بن دوناساليفرني في جماعته، وزيري بن عرابة المطماطي، وحباسة بن ماكس بن زيري الصنهاجي في جماعة من إخوانه، وتبعهم رؤساء القبائل البربرية، وحتى لحقوا بالخليفة الجديد وعندما شارف منزل ارملاط تخلى عنه من بقي معه من الجند، وبات في ارملاط يقلب كفيه على ما حدث له من سوء التدبير.

وهناك أرسل إليه محمد بن هشام من قتله واجتز رأسه وحمله إليه 3رجب- 399هـ/ 3مارس 1009، وكانت تلك هي النهاية المحزنة التي انتهت إليها الدولة العامرية.

فتزايدت أعداد البربر على ابن عبد الجبار وعلى رأسهم كوكبة من زعماء البربر تعلن ولاءها للعاهل الجديد بعدما أدركت تضعضع الحكم العامري وفشل عبد الرحمان بن أبي عامر في إدارة الحكم.

ومن هؤلاء زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، وبنو ماكبير ابن أخيه زيري، ومحمد بن عبد الله البرزلي، ونصيل بن حميد المكناس، وزيري بن عرابة المتيطي، وأبو زيد بن دوناساليفرني وعبد الرحمان بن عطاف اليفرني، وأبو زيد بن قرة اليفرني، وأبو الفتوح بن ناصر، وخزرون بن محصن الخزراوي، وبكساس بن سيد الناس، وحمد بن ليلى المغراوي.

لم يلق انحياز البربر لمحمد بن هشام ترحيبا يليق بموقفهم هذا فقد لفضتهم جموع المروانيين رؤسائهم وعامتهم، كونهم كانوا وراء ظهور ابن أبي عامر، والأداة التي تغلب بواسطتها عليهم، وساموهم بها سوء ما يكرهون.

لم يعرف المهدي كيف يقابل هذه الفئة التي لجأت إليه، وهو كان في أمس الحاجة إلى مؤازرتهم وتدعيم صفوفه بهم، خاصة وأنهم اظهروا بسالة في الحروب.

ليس هذا فحسب بل فتح عهده بالانتقام منهم وأمر بتحريض العامة على نهب دورهم فقد نهب حي الرصافة الذي كان يقيم فيه الصنهاجيون ولم يبد اهتماما لحمايتهم.

وقد جند لهذا الغرض كل من يقدر على حمل السلاح من الأسواق والأرباض، الذين يمتهنون الزبالة، والجزارة، والفحم، وهم من سفلة القوم، والغوغاء.

فاندفعوا دون خبرة قتالية في مجموعات متفرقة لا تلوي على شيء مجردين من الوازع الديني والأخلاقي.

وكانت أولى الرموز المستهدفة مدينة الزاهرة العامرية فعاثوا فيها فسادا، ونهبوا ما كان فيها من الأموال والأسلحة، والخزائن والآلات السلطانية واقتلعوا الأبواب المحكمة، والخشب الضخم، وغير ذلك مما حوته القصور وبيعت في أنحاء شتى من البلاد.

ولم يرعو هؤلاء في ارتكاب المزيد من الجرائم فقد امتدت أيديهم إلى منازل البربر ودخلوا دور بني ماكس وبني زاوي وأهانوهم.

مما دفع بزاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى مقابلة المهدي، فاستوقف عند باب القصر بالرغم من مكانته الاجتماعية والسياسية ومنع من الدخول، ولم يسلم من اعتداء الحراس عليه بضرب فرسه، وحول هذه الحادثة يورد ابن عذارى نصا مفصلا ينم عن الأسباب الحقيقية للفتنة التي كانت لعامة قرطبة ضلوع فيها بلا جدال.

حيث يقول:«وكان أعظم ما جرى عليه بعض ذلك زاوي بن زيري بن مناد عظيم صنهاجة أصحاب افريقية وملكهم وقومه ملوك افريقية يملكون من اطرابلس إلى طنجة، فاحتبس بالباب للازدحام مدة لا يفرج له ولا يعرف مكانه وكلما هم بالاستقدام ردوه وقرعوا رأس فرسه فلما

أكثروا عليه جعل يقول هذا الرأس فضربوا، فالدابة لا ذنب لها، فكانوا يرون أن ذلك مبتدأ حقده».

وأمام هذه المواقف التي أبداها محمد بن هشام حيال البربر، أيقنوا أن ما يخبأ لهم هو أعظم، وكيف لا وهو شخصية متذبذبة، ومتهورة تحركها النزاعات الخاصة وليس لها هدف أسمى

ففكروا في شخصية يمكن الالتفاف حولها فلتفوا حول زعيم جديد من هذه الأسرة وهو هشام بن سلمان الملقب بالرشيد وانتهت المواجهة بانهزام البربر ولقي الرشيد مصرعه.

ونكاية في البربر ومحاولة لتجفيف منابعهم، بالقتل والتشريد أمر بأن ينادى في الناس أنه من يأتي برأس بربري فله من المكافأة كذا، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه، حتى لدخلوا على سنار البرزليوهو ممن كانت له آثار جميلة في الجهاد، فذبح على فراشه في منزله، ولم يستثنى من ذلك صالح أو طالح، وهتك الحريم وسبي النساء، وقتلوا النساء الحوامل وبيعت الشابات.

وقتلوا سبع عشر رجل من أهل تلمسان قدموا للغزو في ساعة واحدة واستنزل مسلم بن عبد الله الحسيني من داره وقتل ومثل به ورمي في حفر بجوار داره، وانتهب منزله وفضح بناته، وقتل قوم من أهل خرسان والشام على أنهم بربر، وقد استنكر ابن عذارى هذه الاعمال وعدها من القبائح التي استحقت غضب الله، وجرت عليهم سننه التي محقتهم إلى الأبد.

وإن المتأمل في هذه الجناية التي جنح إليها المهدي ضد البربر ليدرك مدى السفاهة والتهور التي قادته إلى ارتكاب هذه المجازر في حق البربر، وكان الاجدر ان يأملهم على أموالهم وأعراضهم، ويحافظ على مراكزهم ومكانتهم ضمن صفوف المجتمع الأندلسي.

وهو قد أخطأ التقدير في أعداد البربر المنتشرين في أرجاء الأندلس وأن الضغط والتنكيل بفئة منهم لكفيل بأن يجمع الأجزاء المبعثرة في كامل الاندلس وهو ما حصل بالفعل، فعندما ضيق الخناق على بربر قرطبة.

فتسامع البربر بما فعل بإخوانهم بقرطبة، فتداعت سائر البربر إلى الانضواء تحت راية سليمان المستعين الذي كان في نظر البربر هو الخليفة المرواني الوحيد الذي تجب مبايعته لتخليصهم من عدوهم المهدي.

وعلى أية حالة فإن عمليات استهداف البربر أدت إلى تكتلهم وتجمعهم حتى لا يفتك بهم أهل قرطبة.

وحتى هذه الساعة ظل البربر صابرين على إذاية أهل الأندلس لهم، محاولين جهد الامكان مجانبة التصادم مع الاندلسيين وفي هذا بقول ابن عذارى: «وكان البربر إذا دخلوا أسواق قرطبة تخوفوا من العامة، فإن صهر فرس على فرس قامت النفرة، لتعصب العامة عليهم وبعضهم فيهم وهم مع ذلك صابرون ينهون سفهاءهم وعبيدهم أن يمد أحد منهم يده إلى الأندلس».

وفي غمرة هذه الحداث سعى حكماء البربر وزعمائهم، زاوي وحباسة، وحبوس أبناء ماكسن، دخلوا على المهدي، وشكوا له ما أصاب قومهم على يد أتباعه، فتظاهر لهم بالاعتذار، وأمر بقتل المعتدين وأمر وزيره أن يعلن على رؤوس الأشهاد، أن المهدي قد عفى عن جميع البرابرة، شريطة أن يعودوا إلى بلادهم لخدمة الأرض كما كانواوكان ممن اختفى عن الأنظار، محمد بن يعلى المغراوي، ومصد بن حميد في نفر من بني عمهم وجماعة من البربر، فأمنهم وألبسهم القلانس والأردية وأمرهم ان يتزينوا بزي الأندلسيين ويخلعوا العمائم، وأمر المهدي بالكف عن إذاية البربر، ومن خالف فله السيف، فكف الناس عنهم.

لم تنطل حيل المهدي على البربر ولم يستجيبوا لنداءاته ووضعوا هذه المرة يدهم في يد سليمان بن الحكم، وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله في شوال سنة 399هـ/ 1009م، وسار بهم نحو قلعة رباح التي انظم إليه أهلها، وهناك أدرك المهدي فشل سياسته وسء تقديره للأشياء، فحاول أن يربئ الصدع، ويفوت الفرصة على البربر، فارسل إليهم رسولا من بني جلدتهم من أجل استمالتهم، فأرسل إليهم التاجر الجزائري عباس البرزالي يدعوهم إلى التعقل والعودة إلى قرطبة.

فلم يصغ البربر لسفير المهدي، ولم يعيروه اهتماما بل قالوا له: « لولا انك رسول وتاجر لقتلناك فليس لرجوعنا من سبيل لأنه إن أمننا لم تؤمن رعيته وإن أمنتنا رعيته لم تؤمنا جنده».

ورأى سليمان ان يؤمن مواجهته للمهدي بالاستعانة بالملك القشتاليشانجه بن غارسية، الذي لم يتأخر في الانضمام لجيش المستعين، وكانت فرصة للانتقام من المسمين.

تحرك جيش المستعين نحو وادي الحجارة فتجاوزها واقترب من مدينة سالم، فانضم إليه

حوالي أربع مائة من البربر الذين تخلوا عن حاكم المدينة وانضموا إلى إخوانهم وحتى يألب محمد بن هشام أتباعه ويشحذ هممهم لمواجهة البربر أخذ يشنع بالبربر ويصف لهم ما ارتكبوه من فضائع وتدمير بوادي الحجارة فتحمس الناس لمقاتلة البربر.

وكان من أعظم البلاء الذي نزل على البربر، هو خروج الغوغاء من عامة قرطبة وتجمعهم حول القصر، وهم يهتفون بقتل هؤلاء البربر الذين هم معهم، ونسائهم وأولادهم لأنهم كما يقول ابن عذارى: «لأنهم أضر علينا من الذين يأتوننا والبربر مع ذلك مستورون عند من يؤمنهم من اهل قرطبة».

واصل المستعين سيره نحو قرطبة، وفي مكان يعرف بقنطيش التقى الجمعان في معركة ضارية، استدرج فيها البربر أهل قرطبة ثم مالوا عليهم ميلة واحدة وأخذوا في تقتيلهم ليدخلوا المدينة من مسالك مختلفةيصف ابن حيان معركة قنتيش وصفا دقيقا قائلا: «تدني الزحف ليوم السبت لثلاث عشره من ربيع الأول، فتسء إليهم أهل قرطبة وخالفوا واضحا في تدبير حربهم، فاستجرتهم البرابرة حتى إذا تمكنوا منهم عطفوا عليهم فانكشفوا عليهم انكشافا ما سمع مثله، وانهزموا على منازلهم، وتشعبت الطرق بهم وعاد تضيق مسالك كانوا عدوها لعدوهم سدادا دونهم، فازدحموا وتناشبوا وقتل بعضهم بعضا، ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم فقتل في هذه الوقعة عالم وأبادوا أمة».

ولم تعف هذه الوقعة صنفا من الناس، فقد راح ضحيتها عدد كبير من الفقهاء والمؤذنين وأئمة المساجد وحتى من اهل الطرب فقد أصيب زريوط الطنبوري وأقام له أصحابه مأتما مشهودا بعد الحادثة.

حتي قال ابن حيان: «من كل طبقة أخذت وقعت قنيش حتى من أهل الباطل».

ومن هؤلاء الادباء الذين وجب ذكرهم في هذه الحادثة أحمد بن مطرف بن هانئ التجيبيوالفقيد عمر بن عثمان.

والعالم الأديب محمد بن عبد السلام المعروف بالتدمري والاديب اللغوي الشهير سعيد بن عثمان المعروف بابن القزاز.

ولما احيط بالمهدي وأيقن بالهزيمة حاول استمالة البربر، فأظهر لهم هشام المؤيد، لانه كان لهم شغلهم الشاغل حيث كانوا يرون ان اختفائه كان سببا في المأساة التي ألمت بالأندلس، وكانوا كثيرا ما يكثرون عليهم الترحم، ويطالبون بدمه، فأخرجه للناس وظن أنهم يتعصبون له إذا رأوه.

غير أن البربر عجبوا من صنيعه هذا، وأعلنوا تمسكهم بإمامهم المستعين فقال له البربر: «لله محمود على سلامته، ونحن لا حاجة لنا في إمامته ولا نرض بغير سليمان».

وفي رواية لابن عذارى فقد سخروا من القاضي ابن ذكوان وقالوا له «سبحان الله يا قاضي، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه انت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة عليه، وجعلوا يتضاحكون منه».

فلم تطلي حيل محمد بن هشام على البربر ولي مدبرا، ولاذ بالفرار نحو طليطلة، ولحق بالخليفة واضح، أما سليمان المنتصر في هذه المعركة فقد دخل قرطبة وأمر جند الصقالبة بحفظ هشام بن الحكم في بعض حجر القصر.